كلمة العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

عنيت « الاصالة » ، منذ تأسيسها عام 1971 (1) ، بنشر الدراسات الاسلامية المتعمقة ، والابحاث الفكرية والثقافية ، فى شتى مجالات المعرفة الانسانية • فمحافظة منا على ميزتها هذه ، ونظرا الى أن طبع كتب ملتقيات الفكر الاسلامى يعانى تأخرا كبيرا فى الانجاز (2) ، وتلبية لرغبات الاوساط الثقافية ، داخل الوطن وخارجه ، فى التعجيل بنشر أعمال هذه الملتقيات للاستفادة منها ؛ فان « الاصالة » ستخصص معظم صفحاتها لتأدية هذه المهمة ، الى جانب ما يطعم به كل عدد ، من دراسات وأبحاث اسلامية ، تدعو اليها الاحداث والمناسبات •

وبهذا تكون الاصالة « مجلة فصلية للفكر الاسلامى » تصدر كل ثلاثة أشهر ، ان شاء الله •

واننا نهيب بالكتاب والمفكرين الذين يؤمنون بفعالية الثقافة الاسلامية ، ان يثروها بأبحاثهم ودراساتهم ؛ فبرفع مستواها شكلا ومضمونا ، وبانتظام صدورها ، مدعومة بمجلة « الرسالة » (3) الشهرية المتوجهة الى الشباب بخاصة ، وبصحيفة « العصر » (4) الاسبوعية المتوجهة الى القراء بعامة ، نكون قد خاطبنا جميع الفئات ، ولبينا معظم الاهتمامات وعملنا ــ قدر الامكان ــ على توحيد الرؤية والمنهج ، لارساء أسس ثقافة اسلامية أصيلة ، تحقق التكامل والشمول ، لمسيرة ثورتنا نحو الغد الافضل والمعاد الاسعد ، وتساهم فى نشر الوعى الاسلامى الصحيح الذى يضمن للمسلمين ، فى المغرب والمشرق ، مزيدا من التفاهم والتعاون على مواجهة مسؤولياتهم نحو أنفسهم ونحو الناس أجمعين •

عبد الرحمن شيبان
وزير الشؤون الدينية

---

(1) أصدرت وزارة الشؤون الدينية قبل « الاصالة » مجلتين ، هما : « المعرفة » وصدرت سنة 1963 • ثم « القبس » ، سنة 1967 •

(2) آخر كتاب قدم للطبع ، هو كتاب الملتقى الحادى عشر الذى انعقد فى ورقلة ، ونحن الآن على أبواب انعقاد الملتقى السادس عشر •

(3) صدر العدد الاول من مجلة « الرسالة » فى مارس 1980 •

(4) صدر العدد الاول من صحيفة « العصر » فى 16 أفريل 1981 •

ذكـــرى خـــالـــدة

ان ذكرى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه من مكة المكرمة الى المدينة المنورة هى بداية الطريق والاعداد للمستقبل وبناء الدولة الاسلامية الكبرى التى تربط بين الشرق والغرب وتصل بين الارض والسماء وتسوى بين الابيض والاسود . وتؤاخى بين العربى والعجمى وتمحو فوارق اللغة والجنسية وتوحد بين القبائل العربية المتنازعة المتناحرة وتجمع شملهم وتضع حدا نهائيا للدسائس والمكائد اليهودية وتقطع رؤوس تلك الافاعى التى تنفث سمومها فى جسم الامة العربية. وتنطفىء نار الحرب التى تأكل الاوس والخزرج وتقف الدماء السائلة بين الاخوة والاشقاء فتصفوا القلوب وتتيقظ الضمائر وتتفكر العقول وتتعانق الارواح وتسمو النفوس وتتعالى على المادة ... فى هذا المكان بالذات أى فى المدينة المنورة أسست الدولة الاسلامية وانطلقت الدعوة المحمدية وانتشر نورها فى آفاق الدنيا وغمرها بشعاعها .

فى المدينة اعلنت دولة القرآن ، أساسها العدل والاحسان ، ومن هنا تبدو لنا طبيعة الهجرة ، انها هجرة الى الله ورسوله ،

وليس لها من دافـع الا الايمان ، ولا حافـز الا الامتثال لامـر اللـه تـعالى ، والسعى لايجاد قاعـدة يستطيع فيها الاسلام ان يرفع اعلامه وينشر أنواره ويهدى الناس الى الحق ، ولذلك كانت الهجرة فتحا جديدا فى تاريخ الانسانية ونصرا ملحوظا للدعوة الاسلامية وفاصلا بين عهدين : عهد الكفر وطغيانه ، وعهـد الاسلام وأنواره .

لقد اعلن الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة ، وأخـذ يكافح من أجل الرسالة ، وأصحابه من حولـه يؤمنون بـه ، ويدافعون عن دعوته ، وقد ذابت أرواحهم ، وذبلت أجسامهم فى سبيـل رسالته ، وأحـاط بهـم البلاء ، وأخذهم الكـرب ، وصب عليهم العذاب صبا ، وهم صابرون ، محتسبون ، يبتغون فضلا مـن اللـه ورضوانا ، لا يرجون مـن وراء ذلك عرض الدنيا ، من منصب ، أو حكم ، أو مال ، أو رياسة ، انما يرجون الله والدار الآخرة ، وقد طال بهم ليل كفاحهم وامتد زمـن امتحانهم ، ضربوا وجلدوا وعذبوا بالنار والحديد ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، وما فروا من ميدان التضحية بل قابلوا التعذيب بالصبر والثبات وصمدوا فى وجه الكفر والطغيان صمود الجبال في وجه الزمان . وتحملوا الآلام بنفوس مليئة بالايمان .

وكم فى الهجرة من دروس وعبر .

وكم فى الهجرة من معان وأسرار .

وكم فى الهجرة من ذكريات واشواق تثير الاحاسيس وتهز الشعور وتلهـب العواطف وتحيـى الضمائر وتـوقظ النيـام وتبعث الاموات ، ليت المسلمين يفهمون هذه الدروس القيمة

ويحللون معانيها السامية ويدركون أغوارها ، ويغوصون فى أعماقها ويستخلصون كنوزها الثمينة ، فيعيشون داخلها لحظات من الزمان يستخلصون من اعماق التاريخ معانى وعبرا كما تعيش النحله لحظات داخل الزهرة تمتص رحيقها فى صمت وسكون مختفية عن الانظار حتى تقضى حاجتها وتنهى العملية وتعود الى قفرها لصنع العسل وتترك الاوراق الغضة التى تستهوى الفؤاد وتجلب الانظار بعبيقها المؤقت وجمالها الزائل تتركها للفراشة المفتونة بالجمال الخارجي والمظاهر البراقة فتحوم حول الزهرة تقبل أوراقها حتى تذبل وتسقط على الارض وتسقط معها الفراشة فتموت فينتهى كل شىء لا زهرة تفوح ولا فراشة تطير وتحوم وعمر الفراشة محدود بعمر الزهرة . هكذا نحن المسلمين كم لنا من أعياد ومواسم وذكريات نحيى لياليها ونقيم لها الحفلات ونأكل فيها الحلويات ونلقى المحاضرات ونعقد الندوات ونتلو القرآن وننظم الشعر ، ونردد القصائد والمدائح الدينية والخطب الرنانة ... فاذا انتهى يوم العيد انتهى العمل وانطفأ الحماس وانمحت ذكرياته من القلوب واسدل عليه ستار النسيان .

ان يوم الهجرة يوم كسر الاسوار الحديدية التى تحيط بالدعوة المحمدية وخطر الحواجز التى وضعت أمامها ومزق الستار المسدول عليها ليحجب نورها ويخفى شعاعها .

فالهجرة كانت مبدأ السلام والامن فى الارض ، وتحويل مجرى الانسانية المعذبة وانهاء المظالم والاعتداءات لتأخذ العدالة مجراها الطبيعى فى كل نواحى الحياة « وأساس العمل فى الاسلام اخضاع الحياة للعقيدة » فتكون العقيدة أقوى من الحاجة ، فيكون الفقير معدما ويتعفف ، ويكون الغنى موسرا ويتصدق ويكون الشره طامعا ويمسك ، ويكون القوى

قادرا ويحجم . والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه ، تبعثه روح الرسالة ويسطع فى نفسه اشراق النبوة فيكون دائما فى أمره كالمسلم الاول الذى غير وجه الارض ويظهر هذا المسلم الاول باخلاقه وفضائله وحميته فى كل بقعة من الدنيا .

أيها المسلم لا تنقطع عن نبيك العظيم ، وعش فيه أبدا ، واجعله مثلك الاعلى ، وحين تذكره فى كل وقت فكن كأنـك بين يديه كن دائما كالمسلم الاول ، كن دائما ابن الهجرة الذى صنع المعجزة ، واجعل يوم الهجرة يوم تفكير وتأمل ، يوم جد وعمل ، يوم درس وبحث ، وغص فى اغواره وتغلغل فى أعماقه وعشه بعقلك وشعورك واحساسك واجعله يـوم التوحيـد والوحدة ، يوم الانطلاق والعودة الى اللـه ، وتمسك بدينـه الحنيف ، وشريعته السمحاء وكتابه الكريم ، وسنـة رسولـه العظيم.

محمـد نسيـب

تامــلات فى الهجــــرة

البسيــونى قنعـــان

حيـــاة نموذجيـــة :

فى اعتقادى أن حياة الرسول (ص) وما تحمل نموذج يضعه الله أمام عباده للاقتداء به وصدق الله العظيم اذ يقول : « **لقد كان لكم فى رسول الله اســـوة حسنة** » (1). وفى اعتقادى أيضا وبناء على ما قلت أن ما يحدث للرسول ومنه انما هو لحكمة أرادها الله ، وليس للصدفــة اليه من سبيل، فكرت فى هذا وأنا أمسك بقلمى لاكتب عن هجرة الرسول (ص) ، ولئن كانت هجـــرة الرسول (ص) بما تحمل من معان موضوعا طرقه الباحثون على مدار تاريخ طويل ، وان القول فيما كثر فيه القول من أصعب الامور ، فاننى أريد أن اقتصر هنا على بعض الجوانب ، محاولا بالتامل فيها أن أعلل لها ، أو أستقي منها الحكمة أو العبرة ، وتلـك ـ لعمرى ـ ما يجب أن يهتم به المسلمون، فكثيرا ما ينسينا ـ نحن المسلمين ـ ذكرى ما حدث الحدث نفسه ، والعبرة منه ، فنصبح فى واد ، وما يراد منا فى واد آخر ، فان الله علمنا فى كتابه العزيز أن العبرة هى المقصد الاسمى من كل حدث يرد ، وكل قصة تحكى ، قال الله تعالى : « **لقـــد كان فى قصصهم عبـــرة لاولى الالباب** » (2) ، ومن هنا أبدأ الحديث :

اهــو وقــت ضائـع ؟ :

لقد مكث محمد بمكة ثلاثة عشر عاما يدعو الى ربــــه ، ويلـــقى من العنـــت والاضطهاد هو ومن آمــن معه فــوق ما

(1) سورة الاحزاب : 21 .
(2) سورة يوسف : 111 .

يتحمل البشر ، فما آمن معه الا القليل على خوف من قريش ، فاذا أضفنا الى هذا أن حياة الرسول (ص) من بعثته الى وفاته ثلاثة وعشرون عاما ، فان معظمها يكون فى مكة ، حيث لم يكن للاسلام شوكة ، ولم يؤمن به الا القليل ، فاذا سألنا أنفسنا لماذا ؟ أو ما كان الله قادرا على أن يختصر على رسوله هذه الفترة ؟

ان الله يعلمنا أن ارادته اقتضت ألا تنتصر دعوة حتى يبتلى أصحابها ، والقائمون عليها ، ولو أراد الله أن يعفى أحدا من عباده من هذا الابتلاء لاعفى رسوله وخير خلقه ، ولكنها سنة الله فى خلقه ، لا تولد دعوة ولادة طبيعية حتى تعانى من مشاق الحمل ، وآلام المخاض •

وكلما عظمت دعوة كان التمهيد لها أعظم ، وبناء الاساس أعمق ، تماما كما يحدث فى كل بناء ، فعلى قدر عظمة البناء وشموخه يكون رسوخ الاساس وقوته •

ان الدعوة حين تبدأ قد يدخلها القوى فى ايمانه والضعيف ، والمؤمن اقتناعا أو استهواء والداخل فيها طمعا فى مغنم أو منصب أو جاه، والانتخاب الذى يتحدث عنه العلماء يقتضى التصفية ، وكما يعرض الذهب على النار لتزول عنه شوائبه فان الداخلين فى الدعوة ـ وبخاصة فى أول أمرها ـ لابد أن يعرضوا على نار الابتلاء والاختبار ، فلا يبقى الا كل قادر على حمل العبء ، وقوى الايمان ، والا كان عبئا عليها ، وعامل هدم لا بناء . **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (3) •**

كما أن الدعوة كلما عظمت كثر حسادها والحاقدون عليها ، واذا كان الحاقدون على الدعوات يكيدون لها ، وهم شر عليها فانهم من جانب آخر وبالرغم منهم يكون لهم دور فى قيام الدعوة وشهرتها ، فهم يبعدون عنها ضعاف الايمان ، وطلاب المغنم الذين يكون ضررهم أكثر من نفعهم ابان تاسيس الدعوة ، كما أن حسد الحاسدين يلفت الانتباه الى المحسود ويدفع الى الحرص عليه ، والتمسك به . فقد غرس الله فى قلوب عباده أنه كلما عظمت نعمة كثر الحاسدون لها ، مما يجعلهم دليلا عليها ، ولله در البحترى اذ يقول :

وكفانى على الذى يوجد الفضـ
ـل لديه بالحاسدين دليلا

---

(3) الآيتان : 2 ، 3 من سورة العنكبوت •

وابى تمام اذ يقول :

واذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرف العود

والذى لا شك فيه أن حقد قريش ورجالاتها، وشدة ضراوتهم لفتت الانظار، وشدت الانتباه بطريقة أو بأخرى الى دعوة محمد فى مكة وفى غيرها ٠

واذن فلم تكن الفترة التى عاشها الرسول فى مكة وقتا ضائعا على الدعوة ، وانما كان لازما لها ، ولابد منه لبنائها من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانه درس نتعلم منه ٠

المبادىء لا وطن لها :

ولد النبى (ص) فى مكة ، وفيها بيت الله الحرام مهوى قلوب العرب ، وقبلة أنظارهم ، ومجتمع حجيجهم ، وكان من قريش ذوى المكانة بين العرب ، وقد استطاعت قريش أن تستغل نفوذها واجتماع الحجيج فيها بان اصبحوا ملوك التجارة والمال ، وشاءت ارادة الله أن تبدأ الدعوة فى مكة وفى قريش ، وأن تقابل بالصد ، الوقوف فى وجهها خوفا على نفوذهم وتجارتهم ، ولو فكرت قريش لوجدت فى هذه الدعوة عزها فى الدنيا والآخرة كما قال الرسول ، وكما حدث بالفعل بعد انتشار الدعوة فى أرجاء المعمورة ، ورغم ما كان يخترق آذان قريش من مثل قوله تعالى : « **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون** » (4) فان قومه أمعنوا فى العناد ، ولجوا فى الطغيان ، ولم ير الاسلام منعته فى مكة ، وانما رآها فى يثرب ، الا يعلمنا هذا أن المبادىء السامية لا وطن لها ، وان أحدا ليس أحق بالهداية والعقيدة والحق من أحد ، فان العقيدة لمن اعتنقها ، والحق لمن اتبعه ، وان الهدى هدى الله ، كما يعلمنا أن صاحب الدعوة ينتسب اليها ، فالقرابة عنده قرابة العقيدة لا الدم ، ويدور معها ، فحيثما كانت يكون ٠

لماذا يثرب ؟ :

لقد عرض النبى دعوته على قبائل كثيرة ، ولم يترك أذنا استطاع أن يصل اليها الا حشها، ولا قلبا الا ناجاه وناشده، فلم تجد الدعوة الاذن الصاغية ولا القلب الواعى كما وجدت فى يثرب ٠٠٠ فلماذا يثرب ؟

ان الله هيأ يثرب للدعوة قبل أن نبدأ ، فلقد كان الاوس والخزرج من عباد الاوثان يجاورون اليهود ، وكثيرا

الآية : 44 من سورة الزخرف ٠

ما نشبت بينهما العداوة والبغضاء ، واستعر بينهما القتال ، وقد كان لهذا الجوار غير النزاع على السيادة والسلطان اثر آخر عند الاوس والخزرج مما كان عند سائر العرب، ذلك هو الاثر الروحي، فقد كان اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ يعيبون عليهم اتخاذ الاوثان لتقربهم الى الله زلفى ، وينذرونهم ببعث نبى قرب زمانه ، وانهم أى اليهود سيتبعونه ويقاتلونهم معه ، ويقتلونهم قتل عاد وارم ، ولم تصل هذه الدعوة الى تهديد العرب لاسباب لا محل لذكرها هنا ، الا أنها مع ما هياه اتصال الجوار والتجارة هيات أذهان اليثربيين ليكونوا اكثر استماعا للحديث فى الشؤون الروحية من غيرهم من العرب ٠

« خرج نفر من الخزرج الى مكة فى موسم الحج ، فلقيهم النبى فسالهم عن شانهم ، وعرف أنهم من موالى يهود ، فلما كلم النبى اولئك النفر ودعاهم الى الله نظر بعضهم الى بعض وقالوا : « والله انه للنبى الذى تواعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه ، واجابوا محمدا الى دعوته وأسلموا ، وقالوا : « انا تركنا قومنا من الاوس والخزرج ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك ، وان يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك » ٠

وعاد هؤلاء النفر الى المدينة ، فذكروا لقومهم اسلامهم ، فوجدوا قلوبا منشرحة ونفوسا متلهفة لدين يجعلهم موحدين كاليهود ، بل يجعلهم خيرا منهم ، فلم تبق دار من دور الاوس والخزرج جميعا الا فيها ذكر محمد عليه السلام (5) ٠

اليس فى هذا ما يعلمنا أن الله اذا اراد أمرا فقد يسخر لاظهاره أعدى أعدائه فيعملون له وهم لا يشعرون ؟، ان اليهود اعدى أعداء العرب ـ كما كانوا ـ واشد الناس عداوة للاسلام والمسلمين ـ كما سيكونون ـ كانوا ـ كما رأينا ـ من بين العوامل التى أيدت الاسلام ، واهدت اليه اكبر انصاره واشد مؤيديه ٠

واذا أراد الله نصرة دعوة
جعل العدا سببا من الاسباب

اول الغيث :

وتتتابع الاحداث ، وتكون بيعة العقبة الاولى ، ويرسل النبى مصعب ابن عمير مع المبايعين الى يثرب يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم فى الدين ، ويقيم مصعب بين المسلمين ، ويزداد الاسلام انتشارا ، ويعود بعد أن

(5) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل بتصرف ٠ ص 214 ٠

آذنت الاشهر الحرم أن تعود الى النبى ليقص عليه خبر المسلمين بيثرب، وما أصبحوا عليه من قوة، ثم تكون بيعة العقبة الثانية، وتعلم بها قريش، وتبدأ الامور تسير على نحو آخر من الطرفين. فأما من طرف النبى فقد رأى ما أصبح عليه المسلمون فى المدينة من منعة، فلماذا! لا يهاجر مسلمو مكة اليها ليصبحوا أحرارا يعبدون الله كما يريدون، لا يعتدى عليهم معتد، ولا يضطهدهم أثيم؟، ولماذا لا يهاجر هو أيضا ليجعل للاسلام دولة فى المدينة، ويخرج من الحصار الذى أحكمته قريش حول دعوته، والطريق المسدود الذى حاولوا أن يحصروها فيه؟

ويأذن النبى (ص) لاصحابه بالهجرة الى المدينة فرادى أو نفرا قليلا، فان الهجرة الجماعية قد تلفت أنظار قريش، وتثير ثائرتهم، ويؤجل هجرته حتى يهاجر أصحابه، ألا يعطينا هذا درسا رائعا فى سمو القيادة؟ ان القائد العظيم عند الخطر يعرض نفسه أكثر من أى انسان آخر للخطورة والفداء، فربان السفينة الكريم يكون آخر الخارجين من السفينة اذا تعرضت للغرق، وقائد الجيش الشهم - يحمى جنوده قبل أن يحمى نفسه.

ويطلب أبو بكر من الرسول أن يسمح له بالهجرة، فيقول له: « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، ولم يزد على ذلك »، أليس فى هذا ما يعطينا درسا فى الكتمان؟، ان الرسول (ص) لو قال لابى بكر ستهاجر معى فان أبا بكر سيكون موضع سر، لا شك فى هذا، والرسول يعلم، ولكن كتمان السر حتى عن أبى بكر نفسه يعطينا من الرسول درسا: أن الحكيم لا يبوح بسره الا اذا كان للبوح هدف أو فائدة، والا فخير مكان للسر قلب صاحبه، و « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ».

الشعور بالخطر :

هذا ما كان من أمر النبى، أما ما كان من أمر قريش فقد بدأت تدرك أنها أصبحت أمام الخطر وجها لوجه أكثر من أى وقت مضى، ماذا لو أن محمدا هاجر الى المدينة وأصبح ذا قوة بأتباعه؟، ألا يهدد تجارتهم الى الشام؟، ألا يرجع اليهم ليغلبهم على أمرهم، ويرد عليهم ما فعلوه معه؟، صحيح أن هجرة محمد الى يثرب لم تتأكد لديهم بعد، وهجرة أصحابه اليها قد لا يكون معناها هجرته هو، فقد سبق أن هاجر المسلمون الى الحبشة ولم يهاجر محمد، ولكن يكفى فى نظر قريش أن تتمثل الخطر لتخافه، ولتعمل على درئه قبل أن يفوت الاوان، ناهيك بقوم أكل الحقد اكبادهم،

وغطى على عقولهم ، فلم يبق الا أن يتآمروا على محمد ليضعوا نهاية تشفى غيظ قلوبهم ، وتؤمنهم قبل أن يفلت الزمام من أيديهم والى الابد .

ويتفقون على قتله بطريقة غاية فى الدهاء والاحكام ، أن تختار كل قبيلة من فتيانها فتى شابا جلدا ، وأن تعطيه سيفا بتارا قاطعا ، وأن يضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعا ، فيرضوا بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها ، وسفه أحلامها ، وجعلها فى هم مقيم ، ... خطة محكمة ، وتنفيذها أمر سهل ، وهكذا الطغاة فى كل زمان ومكان ، يظنون أنهم قادرون على اطفاء كل شعلة ، وخرق كل ناموس ، ما داموا يملكون القوة والجبروت ، فالجبروت وحده كفيل فى رأيهم بوأد كل خير ، وقطع كل طريق ، ولو تاملنا ما فعله فرعون حينما ذبح أبناء بنى اسرائيل لينجو من رجل منهم تكون نهايته على يديه ، وتأملنا سخرية العناية الالهية منه ، فيربى الوليد نفسه فى بيته ، حتى يتم ما اراد الله أن يكون ، وحتى يصبح ما فعله فرعون ليدرأ عن نفسه الخطر هو نفسه الذى جلبه لها ، ودفعه اليها ، أقول لو تاملنا هذا لادركنا ان الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وهذا ما حدث من طغاة قريش ـ وفيهم أبو جهل فرعون هذه الامة ـ حينما أرادوا نهاية النبى فكانت بداية نهايتهم . ألا يعلمنا هذا أن العاقبة للمتقين ، وأن الطغاة كثيرا ما يتعجلون نهايتهم ، وأن ما يتوهمونه فى أنفسهم أو يوهمون الناس به من قوة وجبروت انما هو فى حقيقيته ضعف عن فهم الامور وما تتطلبه ، وجبن عن مواجهة نفوسهم والصراحة معها ، وأن الاحجام خوفا من الطغاة أمر لا مبرر له ، وأنه شأن الجبناء ، وضعاف الايمان والنفوس ؟ .

ارادة وارادة :

دخلت المؤامرة حيز التنفيذ حينما حاصر الفتيان الذين أعدتهم قريش لقتل محمد داره ، وتبدأ قصة من أعظم ما عرفه تاريخ التضحية والفداء فى سبيل المبدا والعقيدة . ففى الثلث الاخير من الليل خرج النبى من داره رغم الحصار بعد أن ترك فى فراشه على بن أبى طالب مسجى ببرده الحضرمى الاخضر ، ويستطيع النبى صلى الله عليه وسلم أن يخترق صفوفهم ، وأن يمضى لما أمره الله من الهجرة ، وسواء نام المحاصرون ام طمس الله على ابصارهم وبصائرهم فاننى ارى أن الامر غير عادى بل خارق للعادة ، على خلاف

ما يقول به البعض ، فالمعتاد دائما فى مثل هذه الامور أن يدفع الحرص هؤلاء أن يكونوا فى يقظة دائمة ، وحتى لو نام بعضهم فان الحراسة يكلف بها آخرون.

ويصطحب النبى (ص) معه أبا بكر بعد أن كان قـــد أعلمه باذن الله لــه بالهجرة ، واتجها جنوبا الى غار ثور ، لانهما يعلمان أنهما سيطاردان ، والاتجاه نحو الجنوب أمر لا يرد ببال أحد لانه عكس الاتجاه الى يثرب•ويبقى المهاجران فى الغار ثلاثة أيام حتى يهدأ البحـــث عنهما من قريش ، وكانت الخطة مـــن الاحكام بحيث اعيت قريشا واعجزتهم ، فقد كان عبد الله بن أبى بكـــر يقضى نهاره بين قريش يستمع ما ياتمرون به ليقصه ليلا على النبى وأبيه ، واما عامر ابن فهيرة مولى أبى بكر فكان يرعى غنم أبى بكر وكان اذا أمسى اراح عليهمـا فاحتلبا وذبحا ، واذا عاد عبد الله بن أبى بكر من عندهما تبعه عامر فمحا اثره ••• لماذا كل هذه الحيطة ؟ ، أولا يعلم محمد أنه رسول الله ؟ ، وأن الله الذى امره بالهجرة سيحميه ؟ ، وأن الله اقوى من كل جبار ؟ ، ان الرسول يعطينا درسا لابد منه لكل صاحب رسالة ، بل لكل صاحب حاجـــة ، أن يبـــذل اقصى ما يستطيعه من حيلة بريئة ، ومن جهد ، ويترك بعد ذلك أمره الى ربه ، هذا هو الفرق بين التوكل على الله المصحوب بالحزم والعزم والارادة ، وبين التواكل المقرون بالعجز والسلبية والاستسلام ، التوكل الذى يدفعنا الى القوة والاخـذ بكل ما نستطيع من أسباب ، لا التواكل الذى يسلمنا الى الضعف والاستكانـة والخمول ، واخيرا الا يقول الله تعالى : **« ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة » (6)** •

وتجد قريش فى البحـــث ، وتلقى راعيا على مقربة من غار ثور ، فتساله ، فيكون جوابه : قد يكونان بالغار ، وان كنت لم أر احدا • هذه الاجابة مـن الراعى كفيلة أن تدفع قريشا بكـــل حرصها وحقدها وخوفها من نجاة محمد أن تفتش كل شبر فى الغار ، وأن تتأمل كل بوصة فيه ، ويتسلق فتيان منهـم الى الغار ، بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لراى النبى وأبا بكر ، ولكنهـــم يحجمون ، لقد رأوا على الغار العنكبوت من قبل ميلاد محمـــد ــ كما قالوا ــ ، ورأوا حمامتين وحشيتين بفـم الغار ، وشجرة تدلت فروعها الى فوهته ، ولا سبيل الى الدخول فيه من غير ازالـــة فروعها ، فتاكدوا من عدم وجود أحد •

---

(6) سورة البقرة ــ الآية : 195 •

معجزات أم صدف ؟ :

يا لله ... هذا العنكبوت الذى غير مجرى تاريخ العالم ، وهاتان الحمامتان اللتان كانتا سببا فى حفظ سيد الانبياء والمرسلين وصاحبه ، وهذه الشجرة التى خيبت أعتى الكفار، وردتهم خاسئين ... ما شأنها ؟ أهى آية من آيات الله ، ومعجزة من معجزاته ، أم أنها المصادفة. ولا شىء غير المصادفة ؟ .

يذهب فريق من الناس الى أنها المصادفة لا غير ، مدعين أن الحمام والعنكبوت والشجر موجود فى كل أرض ولنقرأ قول أحد المستشرقين وهو المستشرق در منحيم : « ان هذه الامور الثلاثة هى وحدها المعجزة التى يقص التاريخ الاسلامى الجد : نسيج عنكبوت، وهوى حمامة ، ونماء شجرة ، وهى أعاجيب ثلاث لها كل يوم فى أرض الله نظائر » ، لقد كشف الرجل ــ كما ترى ــ عن هويته ، واسقط عن وجهه كل قناع ، فبدا للعيان عدم الحياد اللازم لكل باحث نزيه ، فقد أراد أن يوهم أن الاسلام ليس له معجزة الا معجزة الغار ، ثم أسرع الى هدمها ، واذن فلم تبق للاسلام معجزات .

ويذهب فريق آخر الى أنها معجزة ، ووجه المعجزة فيها أن هذه الاشياء لم تكن موجودة ، وأنه حينما حل النبى وصاحبه بالغار أسرعت العنكبوت الى نسج خيوطها ، وجاءت الحمامتان فباضتا عند بابه ، ونمت الشجرة ولم تكن نامية.

على أن الامر ــ فى رأيى ــ لا يعدو أن يكون أحد احتمالات ثلاثة ، اذ لا يتصور العقل غيرهما ، أما الاحتمال الاول فهو : أن تكون العنكبوت والحمامتان والشجرة غير موجودة قبل دخول النبى (ص) وصاحبه الغار ثم وجدت للتمويه على الكفار حماية من الله لنبيه ، ولا عبرة للقول بأن هذا أمر غير عادى وبالتالى غير معقول ، فاننا لم نقل بانه أمر عادى، أوليس محمد رسولا ثبتت رسالته ، وأيده الله بمعجزات منها ما هو باق خالد وهو القرآن ؟ ، فما الذى يمنع عقلا أن يؤيده الله بمعجزة أو معجزات أخرى ؟ ، ان غير العادى من المعجزات معقول كما هو معروف فى تاريخ الرسالات والرسل ، وان القول بأن الخارق للعادة غير معقول مرفوض عقلا وواقعا ، كالقرآن مثلا فانه خارق للعادة وموجود فى الواقع .

الاحتمال الثانى : أن تكون الاشياء الثلاثة موجودة قبل دخول الغار ، ولكنها بقيت على حالها بعد دخوله ، فلم ينقشع العنكبوت ، ولم تطر الحمامتان ، ولم يتغير اتجاه أغصان الشجرة ، وهذا أمر غير عادى أيضا .

أما الاحتمال الثالث فهو : أن أثر دخول الغار كان ظاهرا ، ولكن قريشا ـ على شدة حرصها على اجتلاء الامر ـ صرفها الله عن النظر ، وأعمى الابصار منها والبصائر عن رؤية رسوله ، وهذا أيضا أمر غير عادى ٠

واذن فالاحتمالات الثلاثة غير عادية ، فاذا أضفنا الى مسألتى فتيان قريش المحاصرين ، والغار ، مسألة ثالثة وهى ما حدث من سراقة بن مالك بن جشنم وله، أصبح الامر أكثر وضوحا ٠

فها هى ذى قريش بعد أن باءت كل جهودها بالفشل تلجأ الى سلاح المال ، فترصد جائزة سخية مائة ناقة لمن يستطيع العثور على محمد ورده حيا أو ميتا ، وينشط سراقة للحصول على هذه الثروة ، لدرجة أنه ضلل غيره ليفوز بالنوق المائة ، حينما أقبل رجل على قريش فاخبرها أنه رأى ركبة ثلاثة مروا عليه يتقدمهم محمدا وبعض أصحابه ، فقال سراقة وكان حاضرا : انما هم بنو فلان ٠

ومكث مع القوم قليلا ، ثم عاد الى بيته ، فتدجج بسلاحه ، وأمر بفرسه فأرسل الى بطن الوادى حتى لا يراه أحد ساعة خروجه ، وامتطاه ودفعه الى الناحية التى ذكرها الرجل ، وكان محمد وصاحباه قد أناخوا فى ظل صخرة ليقيلوا ٠

وبدأت الشمس تنحدر ، وبدأ محمد وصاحباه فى امتطاء جمالهم ، وكانا من سراقة قيد البصر ، وكان جواد سراقة قد كبا به مرتين ، فلما رأى أنه أصبح من هدفه قاب قوسين لز جواده ليسرع به الى الظفر ، ولكن الجواد فى قومته كبا كبوة عنيفة ألقى بها الفارس من فوق ظهره يتدحرج فى سلاحه ، وصار سراقة اذا حرك فرسه فى اتجاه غير محمد سار ، أما فى اتجاه محمد فيحجم، عند ذلك أدرك سراقة أنه ليس أمام شخص عادى ، وأن ما جاء من أجله لا يمكن تحقيقه ، وأنه معرض نفسه لخطر داهم اذا أتم المحاولة ، هنالك وقف ونادى القوم : أنا سراقة بن جشم ، انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ، فلما وقفا ينظرانه طلب الى محمد أن يكتب له كتابا يكون آية بينه وبينه ، وكتب أبو بكر بأمر النبى كتابا على عظم أو خزف ألقاه الى سراقة ، فاخذه وعاد أدراجه ، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر الاعظم بعد أن كان يطارده ٠

هذا ما تحكيه كتب السيرة باختصار، ويجوز لنا أن نتساءل : أما حدث لسراقة

كان صدفة أيضا ؟ ان فريقا يدعى هذا، وان الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه ـ حياة محمد ـ ذكر أن كبوة الجواد انما كانت من شدة الجهد ، وأن ما صرف سراقة : « أنه تطير والقى فى روعه أن الالهة مانعة منه ضالته » (7) ·

ولنا أن نسأل : ما الذى قلب سراقة من المطارد الحريص أشد الحرص على الظفر بمحمد الى المسالم الذى يتجاوز المسالمة الى تضليل من يطاردونه ؟ ، أويحدث هذا لان فرسه كبا من شدة الجهد ؟ ، أوليس سراقة فارسا يعرف فرسه شأن كل فارس مجرب ؟ لو أن الفرس أصابه الجهد ، أو كبا المرات الثلاث صدفة فلماذا لم يرح جواده قليلا ثم يعود الى المطاردة ، والطريق ما زال طويلا قبل وصول محمد الى يثرب ، والفرص ما زالت مهيأة للمطاردة ؟ ، ثم لماذا يطلب من محمد كتابا ؟ ، أليس لانه أصبح يعتقد أنه أمام نبى له شأن ؟ فما الذى جعله يعتقد هذا ؟ ، أهو مجرد أن كبا به الجواد من شدة الجهد ، أو المصادفة ؟ ، لو أن الجواد انسان لاسرع الكثيرون الى القول بأن كبوته قد تكون من حالة نفسية ، ولكن أيمكن أن يقال هذا على الفرس أيضا ؟ ·

مكابـــرة :

وهكذا نرى أننا حيال اصرار غريب على المكابرة ، فما حدث لفتيان قريش المعاصرين صدفة ، وما حدث فى الغار صدفة ، وما حدث لسراقة ومنه صدفة ، ألا نحمل الصدفة أكثر مما تطيق ؟ أمن العقل أن نضلل العقل بحمل أمور كثيرة تضافرت على حماية خير نبى ورسول من أعداء ألداء دبروا له باحكام ، فلما نجا منهم تصدوا للبحث عنه ومطاردته بامعان واصرار على الصدفة وحدها ؟ ، واذا سلمنا ـ لمجرد الجدل ـ أن كل أمر من هذه الامور صدفة ، فهل يكون توالى هذه الصدف صدفة أيضا ؟ · واذا قرأنا قوله تعالى : « **الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** » (8) ، الا نرى أن الله أيد رسوله بجنود لم يروها ، فما معنى هذا ؟ ، أقاتل الرسول (ص) مطارديه أو تعرض لقتالهم حتى تكون الجنود التى لم يروها قد قاتلت معه أو عنه ؟ ، ان عمل الجندى فى الحرب لا يكون القتال

(7) حياة محمد ـ الطبعة الخامسة عشرة ـ ص 227 ·
(8) سورة التوبة ـ الآية : 40 ·

فحسب ، بل قد يكون التعمية والتخذيل أيضا ، وكما يكون الجندى بشرا مقاتلا يكون شيئا مما خلق الله ، وسخره للنصر والتأييد ، كالطير الابابيل التى سلطها الله على جيش أصحاب الفيل ، وكالريح الصرصر العاتية ، فلم لا تكون الجنود هى هذه الامور الخارقة التى أيد الله بها رسوله وحماه فاعمتهم وخذلتهم وردتهم على أعقابهم خاسرين ؟ .

فى سبيل الله :

وانطلق محمد وصاحبه بعد أن سلكا طريقا غير الطريق الذى ألفه الناس ، فسار بهما دليلهما ممعنا الى الجنوب بأسفل مكة ، ثم متجها الى تهامة على مقربة من شاطىء البحر الاحمر ، ثم اتجه بهما شمالا محاذيا الشاطىء مع الابتعاد عنه ، متخذا من السبل ما قل أن يطرقه احد ، ولئن كان الحذر الواجب والذى أمر الله به يقتضى سلوك طريق غير الذى الف الناس ، فان سلوكه على هذا النحو زاد من طول الطريق ووعورته ، وأعباء السفر ومشقته ، ومن يعرف قيظ الصحراء المحرق وطبيعة الوهاد والآكام التى كابد الرسول وصاحباه منها يعرف الى أى حد كانت المعاناة التى لم يهون منها الا أنها فى سبيل الله ، وكل مشقة فى سبيل الله عند رسوله تهون .

ولئن ترك محمد فى مكة قلوبا أكلها الحقد ، ونفوسا متعطشة لدمه فان فى المدينة قلوبا ارهفها الحب ، واشرأبت الى اللقاء ، فمنذ أن ترامى الى علم أهل المدينة نبأ هجرة الرسول (ص) فانهم جعلوا يتجهزون للقائه ، وكانوا يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح الى ظاهر المدينة يتلمسونهم حتى تغلبهم الهاجرة فى هذه الايام الحارة ، يفعلون ذلك وكثير منهم لم ير الرسول بعد ، بل آمن به وصدق قبل أن يكرمه الله برؤيته .

فلما أشرق الرسول بمقدمه استقبلوه استقبالا فوق الوصف والخيال ، ما منهم الا من يريد أن يفوز منه بنظرة، أو يتقرب اليه بعمل ، أو يتشرف منه باهتمام .

وجهان لعملة واحدة :

ولكن هل انتهت الاعباء الجسام ، ووصلت الدعوة الى بر الامان ، وانتهت الاخطار التى كانت تهددها ، وأصبح من حق صاحب الرسالة أن ينام عنها قليلا، أو ينعم بما ينعم به الناس من راحة ؟ ، صحيح أن الهجرة كانت دفعة كبرى ، وطفرة عظمى ، وفيصلا كبيرا بين عهدين، ونقطة انطلاق كان لابد منها للدعوة ، وصحيح أيضا أن المسلمين الذين كان يتخطفهم الناس فى مكة وكان احدهم لا يأمن على نفسه ولا يستطيع أن يعبد الله كما أراد أصبحوا فى المدينة من

المنعة والقوة والحرية والامان بمكان ، ولكن الصحيح ايضا أن أعباء الدعوة زادت ، وأن متاعبها أصبحت فى ازدياد• ان الله الذى يبتلى الناس بالشر والخير فتنة كما يقول فى كتابه العزيز : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (9) ، يبتلى الدعوات بالشر والخير ، ولا يكون النصر الا للمؤمنين الذين لا يؤنسهم الشر ، ولا يبطرهم الخير •

لقد أصبح للعملة وجه آخر ، فلئن اختفت ظاهرة المؤمن الذى يخفى ايمانه خوفا من تعذيب قريش فى مكة فقد ظهرت فى المدينة مع قوة المسلمين ومنعتهم ظاهرة المنافق الذى يبطن الكفر ، ويظهر الايمان « واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ » (10) •

ولئن انتهت معاناة المسلمين من أعداء أشداء يظهرون العداوة ويبطنونها فى مكة فقد أصبحوا فى المدينة يعانون من كيد أعداء يتخفون تحت شعار التوحيد ، ويتسترون باقامة الصلاة ، ويجتهدون فى النيل من المسلمين ، والتنكيل بهم ، والعدو المختفى قد يكون أشد ضررا وخطرا من الاعداء الظاهرين ، ولئن اختفى خطر قريش وكيدهم الى حين فلقد أصبح المسلمون بالمدينة قوة يحسب حسابها ، وتلفت أنظار المشركين فى أنحاء شبه الجزيرة العربية وغيرها من العالم ، ويخشى خطرها ، وبذلك اتسع نطاق الاعداء ، ولئن كان المسلمون بالمدينة أصبحوا أكثر عددا واستقرارا ، وأن الاسلام قد أصبح له دولة فان هذا يقتضى جهودا جبارة فى التنظيم والتوحيد والتشريع الى آخر ما تحتاجه دولة ناشئة يعيش فيها أخلاط منهم المؤمن والمشرك والمنافق ، ويجاورهم اليهود ، ويحيط بهم من كل جانب عدا قريش القبائل المعادية حتى لكأن المدينة جزيرة صغيرة وسط محيط من الاعداء • فماذا فعل محمد ؟

اول الاعمال :

ان أول عمل يقوم به عظيم حين يتولى امرا عظيما يكون له دلالة خاصة ، ومغزى هام ، واذا كان العظيم هنا محمدا خير رسل الله وقد وطئت اقدامه خير عاصمة لخير أمة أخرجت للناس فانه يجدر بنا أن نتأمل أول عمل ، وأن نفكر فى دلالته ومغزاه •

ان الرسول حينما نزل قباء وهى ضاحية من ضواحى المدينة كان أول

(9) سورة الانبياء ــ الآية 35 •
(10) سورة آل عمران ــ الآية : 119 •

ما فعله أن بنى مسجد قباء أول مسجد في الاسلام ، والذى قال الله تعالى فيه : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » (11) ٠

وكذلك فعل فى المدينة ، بنى مسجده حيث بركت ناقته أمام مربد لغلامين يتيمين من بنى النجار أخواله عليه السلام ، فما دلالة هذا ؟ ٠ ان المسجد عند المسلمين اهم مكان على الاطلاق ، انه مكان تجمعهم للعبادة ، وجامعتهم للعلم والمعرفة ، وبرلمانهم الذى يتشاورون فيه فى أمورهم ، ويرسمون فيه سياستهم ، ومنه تخرج جيوشهم ، وفيه ينام ضيفا على الله من لا بيت له ، ويلتقى فى رحابه المسلم مع المسلم فلا يكون مكان أحب منه الى قلب المؤمن ، وأقرب منه الى الله ، والمسجد هو المرآة العاكسة لحياة المسلمين ، يقوى بقوتهم ، ويضعف تأثيره والاهتمام به حينما يضعفون، وتصبح رسالته محدودة حينما يضيق أفقهم ، فاذا اردت أن تسبر غور المسلمين فى عصر من العصور ، أو فى بلد من بلاد الله لتطلع على ما هم عليه من قوة أو ضعف فمن مساجدهم تعرف كل شىء ، ويأتيك الخبر اليقين ٠

محمد والانبياء :

بدأ بيثرب طور جديد من أطوار حياة النبى (ص) لم يسبقه اليه أحد من الانبياء والرسل ، وهو الطور السياسى. فعلى غير عادة العرب المحيطين به أظهر النبى قدرة سياسية ، وحنكة وعبقرية تجعل اقدر الرجال ، وأكثرهم فهما وعمقا يقفون أمامه مبهوتين تعقد الدهشة السنتهم ، ويطأطئون رؤوسهم اكبارا واجلالا ، ولا عجب فالله أعلم حيث يجعل رسالته ٠

لقد كان أول هم النبى (ص) أن يجمع المسلمين ويوحدهم ، فعمل على تصفية ما بين الاوس والخزرج لئلا يثور الداء القديم فتكون نكسة لا يعرف مداها الا الله ، وآخى بين المهاجرين والانصار بجعلهم أخوين أخوين ٠ اخاء جعل له الرسول حكم اخاء الدم والنسب ، فتأكدت وحدة المسلمين ، وزاد ما بينهم من المحبة والمودة الى حد يقرب من الخيال.

ثم عقد مع اليهود معاهدة تعد آية من الآيات « فى تقرير حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة. وهى فتح جديد فى الحياة السياسية ، والحياة المدنية فى عالم يومئذ ، هذا

---

(11) سورة التوبة ـ الآية : 108 ٠

العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد، وتعيث فيه يد الظلم فسادا » (12) ٠

وهكذا عرفت المدينة التى مزقتها الحروب ، وارقتها العداوة والبغضاء قبل حلول محمد الطمانينة والراحة والسكينة ، وقد كان هم النبى الاول أن ينشر الحرية ليدخل فى دين الله من هدى الله ، فان الحرية تدفع النفوس الى طلب الحق ، وتدفع الملكات أن تزهد وتزدهر ، كما أن اطفاء شعلة الحرية يعنى انتشار الظلم والظلام ، وطمس النور الالهى فى القلوب والنفوس ٠

أكانت الهجرة فرارا ؟ :

يطيب لبعض الناس أن يتحدثوا عن هجرة الرسول (ص) بأنها فرار وهروب وفى دائرة المعارف لبعض البلاد الاوروبية كتب مكان هجرة محمد فرار محمد ، فهل كانت هجرة الرسول فرارا وهربا ؟،وما الفرق بين الهجرة والفرار ؟

لقد كانت هجرة الرسول (ص) عملا ايجابيا اقتضى من الشجاعة الفائقة ، والتدبير المحكم ما يجعل شجاعة محمد فوق كل شجاعة عرفها تاريخ البشر ، فلم يبال بما جمعت قريش ، ولم يلق بالا لمطاردتهم له ، وبحثهم عنه ، وهل هناك قلب فى سكينة قلب محمد حينما أحاط الاعداء بالغار ، وقال له صاحبه : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » فيقول له محمد : « لا تحزن ان الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »، وحتى كلمة الخوف لا ترد على لسان محمد حينما يطمئن صاحبه ، فلا يقول لا تخف ، بل يقول لا تحزن ٠

كما كان تدبيره للامر ـ على الوجه الذى ذكرنا ـ غاية فى الاحكام ، وقوة العقل والتدبير ، بحيث لم يترك ثغرة واحدة يستطيع الخطر أن ينفذ منها ، يفعل هذا مع علمه ويقينه أنه رسول الله ، وأن الله مانعه وحاميه ٠

ثم انها هجرة فى سبيل العقيدة ، يترك فيها محمد بلده وأعز بقعة عليه ، يناجيها وقد هم بمغادرتها فيقول : « والله انك لاحب بلاد الله الى، ولولا أن اهلك أخرجونى ما خرجت » ، أقول يترك بلده من أجل هدف أسمى ، وهو علو كلمة الله ، ونشر دينه ، وبناء دولته، ثم تظل بلده فى قلبه وفى قلوب أصحابه حتى يرجع اليها فاتحا عظيم القدر والجاه ، وقد جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ليمامل جبابرة الامس الذين أصبحوا من الخوف والذعر يستجدون

(12) حياة محمد ـ للدكتور محمد حسين هيكل ـ ص 241 ٠

منه الرحمة ، ويناشدونه العفو ، فيقول لهم فى عفو الشجاع القادر وكرمـــه : « اذهبوا فانتم الطلقاء » ٠

اذا كان هذا هربا وفرارا فأين أدن الثبات ؟ ، ان الفرار سلوك سلبى جبان، لا يفكر صاحبه فى أكثر من النجـاة ، ولو دفع الثمن من سمعته وكرامته ، على أن من الفـرار والهـروب نوعا يجلبه التعصب الاعمى ، والحقد المكبوت يجعل أصحابه يهربون من مواجهة أنفسهم فى شجاعة ، ومن مواجهة الحقائق فى ثبات فيفتاتون (13) حتى على خير الانبيـاء والمرسلين ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكذبون على الناس وعـــلى أنفسهم ، ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون ٠

---

(13) يكذبـون ٠

المظاهـر السياسيـة للهجـرة

الدكتور عبد اللطيف عبـادة

يصعب على الباحث الواحد أن يدرك جميع أسرار الهجرة النبوية وأن يتبين جميع مظاهرها وأن يستخلص منها جميع النتائج الضرورية كي يعتبر بها عالمنا المعاصر ويتعظ بها المسلمون فى بداية القرن الخامس عشر الهجرى · هؤلاء المسلمون الذين هجروا التاريخ الهجرى الى التاريخ الميلادى وهجروا معه اشرافات الهجرة واشعاعاتها ، لذلك فاننا سنحاول فى هذه العجالة أن نلفت انتباههم الى جانب من جوانب هذه الهجرة – وهو المظهر السياسى – علهم يعودون اليها ليستلهموا منها معالم طريقهم وما ذلك على الله بعزيز · غير أن دراسة هذا الجانب تستحق بدون مبالغة أن يفرد لها مجلد كامل وذلك لان الاسلام دين ودولة وما كانت الهجرة الا رفضا لحكم الجاهلية وسعيا لاقامة دولة اسلامية تستوحى تعاليمها من القرآن والسنة ·

ان الهجرة النبوية حدث هام على الاصعدة كافة وفى مقدمتها الصعيد السياسى لانها تشكل انقلابا فى حياة العالم الاجتماعيةوالاقتصادية والسياسية فضلا عن كونها انقلابا فى حياته العقائدية والثقافية · لذلك فقد أولى القرآن الكريم أهمية خاصة للهجرة والمهاجرين ، فمدح الهجرة والمهاجرين وذم المستضعفين القادرين على الهجرة والممتنعين عنها وأوعدهم شر الوعيد لرضاهم بالاستبداد الذى يخنق حرياتهم فى مجالات الاعتقاد خاصة · فالهجرة فى نظر القرآن يترتب عنها اذلال الخصم والسعة فى الرزق واظهار الدين وتبدل الخوف بالامن فى الصدر ، وقد ذكر المهاجرون أكثر من

عشر مرات فى القرآن بصيغة المدح · قال المولى سبحانه وتعالى : « **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما** » (النساء : 100) وقد خصص القرآن الكريم الهجرة الى الله ورسوله دون غيرها من أنواع الهجرة تأكيدا على أهمية النية فى هذا المجال · ذلك أن الهجرة قد تكون لاغراض دنيوية كما سيوضح ذلك الحديث الشريف · لذلك فالمقياس الصحيح الذى لا يتبدل بالنسبة للهجرة وبالنسبة لغيرها من الاعمال التعبدية يتمثل فى النية : (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى · فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو الى امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه) ·

وقد اتخذت الهجرة مقياسا للمفاضلة بين المؤمنين وقرنها المولى سبحانه وتعالى بالجهاد · قال المولى عز وجل : « **ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ، ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا** » (الانفال : 72) ·

وعلى هذا فان الهجرة النبوية هى نقطة الانفصال بين عالمين عالم الشرك والطاغوت والاستبداد وعالم الايمان والنور والشورى ، لقد أمر المؤمنون أن يعرضوا عن الحياة الجاهلية ومؤسساتها وأن يطلقوها الى الابد وأن يعملوا على بناء مجتمع جديد كل الجدة غريب عن الحياة الجاهلية كل الغرابة يستمد أسسه من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ويتكون من أفراد تربط بينهم أواصر الاخوة الاسلامية وقرابة الايمان لا روابط العصبية القبلية وحمية الجاهلية · فالمؤمن ينصر أخاه ظالما بنصحه أياه وارشاده الى الطريق المستقيم لا بتأييده على الظلم والاعتداء كما يفعل الجاهليون·

لقد كان فى العمل الذى قام به الرسول ـ ص ـ بمكة المكرمة من أجل التمهيد للهجرة النبوية اعدادا حقيقيا للمؤمن الصالح مواطن المجتمع الاسلامى الجديد الذى ستتشكل نواته الاساسية بالمدينة المنورة · هذا المؤمن لا يخاف الا الله ويحتقر ما سواه من طواغيت ومستبدين وكهان ورهبان اتخذتهم البشرية أربابا من قبل · لقد قام الرسول ـ ص ـ باعداد المؤمن الصالح والفاضل والعالم والعادل والتقى وشرع فى تحطيم الهياكل الاساسية البالية للمجتمع القبلى وكذا العبودية تمهيدا للهجرة كما شرع

فى اعداد الاطر السياسية الاسلامية للمجتمع الجديد قبل أن يهاجر اليه عن طريق بيعتى العقبة الاولى والثانية ٠ حتى أن القرآن سجل بيعة العقبة الثانية فى آياته كما يذهب الى ذلك بعض المفسرين ، وذلك لعلو شأوها وعظيم قدرها وأهميتها بين الاحداث السياسية التى عرفها التاريخ الاسلامى منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ لهذه الاسباب وغيرها يعتقد هؤلاء المفسرون وفى مقدمتهم رشيد رضا أن القرآن قد نوه ببيعة العقبة الثانية فى قوله تعالى : **« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »** (التوبة : 111) ٠ ومما يؤيد ما يذهبون اليه ما يروى بأن الله لما أذن للرسول ـ ص ـ فى الحرب بايعهم فى العقبة الاخيرة على حرب الاحمر والاسود وأخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة (1) ٠ وأى فوز أعظم من الجنة ؟! ومن أوفى بعهده من الله ؟!

ولا يهمنا الآن الدخول فى تفاصيل هاتين البيعتين وصيغتيها وظروفهما ونتائجهما لاننا تعرضنا الى ذلك فى مقالة سابقة بل الشىء الذى يهم هو أن الانصار لم يبايعوا الرسول ـ ص ـ بيعة الحرب ، على السمع والطاعة فى عسرهم ويسرهم ومنشطهم ومكرههم وأثرة عليهم ، وأن لا ينازعوا الامر أهله ، وأن يقولوا بالحق أينما كانوا ، لا يخافون فى الله لومة لائم ، مقابل مغانم مادية أو سؤدد دنيوى أو غير ذلك من الامور التى يبايع عليها الحكام اليوم بل بايعوه مقابل الفوز برضا الله وبفسيح جناته ٠ فقد أصبح المحرك الرئيسى للنشاط السياسى هو الفوز برضوان الله ٠ ولا عجب بعد ذلك أن تتخذ هذه البيعة وبيعة الرضوان نموذجين يحتذى بهما الخلفاء والحكام المسلمون فى حياتهم السياسية المقبلة ٠ وانه لانقلاب عظيم أحدثه الاسلام فى نفوس الاوس والخزرج المتباهين بسؤددهم وعصبيتهم وشوكتهم وأيامهم فجعلهم يرون أن أكرمهم عند الله اتقاهم وأن السؤدد والعلو لكلمة الله وحدها وأن المؤمنين اخوة يجمع بينهم حبل الله المتين اذا اعتصموا به وتمسكوا به ٠

---

(1) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ـ فقه السيرة ـ ط ، 5 ، دار الفكر 1972 ص 170 ٠

كانت الهجرة نقطة تحول فى حياة المسلمين وفى تاريخ العالم بما حطمته من أصنام وعبادة الطواغيت وبما أجهزت عليه من هياكل بالية فى الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية • وكان لابد أن ينشأ على هذه الانقاض مجتمع جديد مبنى على الاخوة وعلى اقامة القرآن وعلى التعايش مع الاديان وعلى اشعاع المسجد فى مجالات الحياة كافة • وهكذا يظهر أنه الى جانب الاعداد العقائدى والروحى للهجرة تم الاعداد السياسى المتمثل فى تكوين المؤمن الصالح الذى سوف يضطلع بأعباء المسؤولية فى الدولة الاسلامية الناشئة والذى تتكون منه الخلية الاولى لاول دولة اسلامية يؤسسها الرسول ـ ص ـ فى المدينة المنورة • والدليل على ثبوت الطابع السياسى لهذا الاعداد هو ما سيتبع هذا الاعداد من بيعة • (ومدلول البيعة معروف فى اللغة وفى الفقه) • وما سيتبع ذلك بعد الهجرة من اعداد دستور يحكم المسلمين ومن يعايشهم فى مجتمع المدينة ومن اشعاع اجتماعى وثقافى وسياسى للمسجد ومن اشاعة الاخوة والمساواة بين المؤمنين •

هاجر الرسول ـ ص ـ وانجاه المولى سبحانه وتعالى من مكرهم فلم يسجنوه ولم يقتلوه ولم تنجح مكائدهم وتمت الهجرة باذن الله على أحسن ما يرام • وخلف الرسول ـ ص ـ وراءه مجتمعا قبليا مبنيا على العصبية والحمية ـ حمية الجاهلية ـ والارسطو قراطية القرشية التى تبيح لنفسها استرقاق الآدميين وتبيح لنفسها فرض عقيدتها على غيرها ومنع الناس من الخروج عنها بالقوة • هاجر بعد أن صمد هو وصحابته صمودا هائلا أمام القمع والحصار اللذين فرضتهما عليهم قبيلة قريش •

هاجر وفى نيته انشاء دولة لا تقوم على عرقية ولا استبداد ولا بطش ولا خنق للحريات الانسانية •

هاجر بعد أن رفض جميع العروض التى عرضت عليه من طرف قريش وفى مقدمتها الملك والسؤدد لان الملك الذى يقوم على الاستبداد وعلى الترف والبذخ لا يتوافق مع ما يدعو اليه الاسلام من شورى ونظافة أخلاقية • بل الملك الذى ورد فى القرآن بصيغة المدح هو مرادف للامامة والخلافة • والدين فى جوهره ثورة وليس توفيقا خارجيا تعسفيا • وقد كان الانبياء ثوارا مصلحين ومجددين • ألم يثر ابراهيم ضد التقاليد والاصنام باسم العقل والتوحيد وموسى ضد الطغيان باسم التحرر وعيسى ضد المادية باسم الروح ؟ ألم يكن الاسلام ذاته ثورة الفقراء والعبيد والمضطهدين ضد

الارسطوقراطية القرشيـــــة وسادتهـــا وطغاتها من أجل اقامة مجتمع اسـلامى تسوده الحرية والاخوة والمساواة ومـن أجل تحقيق العدالة الاجتماعية واقامة مجتمع حر واقامة وحدة الامة الاسلامية ؟

فما هى المظاهر السياسية التى افضت اليها الهجرة النبوية الشريفـة ؟ وكيف يمكن تقييم الفوارق الكيفية بين المجتمعين الجاهلى الذى هاجره المسلمون والاسلامى الذى هاجروا اليه؟ ما هى سلبيات المجتمع القديم وما هى أسس المجتمع الجديد ؟ ما هو حكم الجاهلية الذى يرفضـــون وما هو حكم الاسلام الذى يرغبـون فى اقامته ؟

ان المسلمين قد هاجروا مجتمعا جاهليا وسياسة جاهلية وحكما جاهليا وأخلاقا جاهلية • ومن غير المعقول أن نقول أو يدعى أن النظام السيـــاسى الاسـلامى مستوحى من النظام السياسى القبـــلى العربى •

ذلك أن النظام القبلى فى المجـــال السياسى يقوم على :

- حاكمية أعيان القبيلة •
- العصبية القبلية والحمية الجاهلية•
- الرقيـــق •
- شن الحروب لاتفه الاسباب •
- الخضوع لنظم الحكـم المجاورة : القيصرية والكسروية وغيرها •
- اعتبار النســب والمـال والفروسية سلما موصلا الى السؤدد والمجد •
- اعتبار النظام الملكى أرقى ما يمكن أن يصل اليه نظام الحكم عندهم لذلك عرضوا على الرسول (ص) أن يملكـــوه عليهـم •
- قوانين وتشريعات بالية مثـــل وأد البنات وغيره •

أما نظام الحكم فى الاسلام فيقـــوم بالعكس من ذلك على :

- حاكمية الله وطاعة الرسول (ص) وأولى الامر فى المعروف •
- الشورى بين المسلمـــين وضرورة مشاورة أولى الامر لهم •
- الغاء العصبية والحمية الجاهليـــة واحلال الاخوة الانسانية والدينية محلها.
- سن التشريعات الرامية الى التحرير التدريجى للرقيق •
- سن الجهاد دفاعا عن النفس وعـن المجتمع الاسلامى وعن العقيدة الاسلامية.
- اعتبار الملكية المرتبطة بالعلـو فى الارض والفساد والترف والبذخ شرا كلها والاقتصار على ما يرادف منها الخلافـــة والامامـــة •

ـ ذم الخضوع والاستسلام للطغاة والجبابرة سواء كانوا فراعنة أو قياصرة أو غير ذلك •

ـ الغاء القوانين والتشريعات الجائرة كالغاء عادة الوأد عند عرب الجاهلية •

هذا وقبل ان نقول أى شىء عن هذا المجتمع الجديد الذى سيقام بالمدينة المنورة نؤكد أنه بهجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة خرج المسلمون من دار الحرب الى دار الاسلام ـ المدينة المنورة ـ فكانت لهم بمثابة معقل يأوون اليه ويلوذون به • وكانت بذلك أول دار للاسلام وكانت كذلك مهدا لاول دولة اسلامية يؤسسها الرسول (ص) بنفسه ويرعاها بعنايته ويتمهدها بتوجيهاته وارشاداته حتى يتطابق الواقع السياسى مع المثل السامية التى يدعو اليها • ألا قاتل الله الخراصين الذين رموا النظام السياسى الاسلامى بالطوبوية ! وما أبعده عنها ! فافلاطون ومور طوبويان لانهما أتيا بأفكار خيالية لم تطبق فى الواقع ويستحيل تطبيقها • أما النظام السياسى الاسلامى فقد طبق وتبين الناس من خلال الوقائع التاريخية أنه أصبح واقعا حيا فى عهد الرسول (ص) وفى عهد الخلفاء الراشدين ولم يبق مجرد مثل واردة فى القرآن •

لقد حمل المسلمون على الهجرة حملا• حملهم على ذلك ايذاء المشركين لهم وتضييق الخناق على حرياتهم فى الاعتقاد والتعبير من طرف قريش وفرضها الحصار عليهم والحاقها شتى أنواع العذاب بصحابة الرسول (ص) • لذلك فالاسلام لا يرضى باكراه الناس على الايمان « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** » • « **وما أنت عليهم بجبار** » (ق : 45) « **لست عليهم بمصيطر** » (الغاشية : 22) • ولذلك أيضا فقد عمل الاسلام على ارجاع الحريات الى اصحابها وتخليصهم من العبودية• فقد مدح القرآن أبا بكر لانه أعتق مجموعة من الرقيق الذين عذبوا من قبل المشركين • قال سبحانه وتعالى : « **وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى** » •

وكان لابد بعد الهجرة من أن ينتهى الصراع المقيت القائم بين القبائل فى المدينة المنورة وكان لابد من أن تؤسس دولة تتعايش فى ظلها الاجناس ويكفل قانونها الحريات ويسمح تحت رايتها بممارسة الاعتقادات والديانات • وكانت أول لبنة وضعت فى صرح المجتمع الاسلامى هى بناء المسجد الذى سيكون من بين اشعاعاته الاشماع السياسى اذ فيه

تجتمع كلمة الامة وفيه تعتصم بحبل الله وفيه يتشاور المسلمون فى شؤونهم وأمورهم وفيه يتكون المؤمن الصالح مواطن المجتمع الاسلامى وفيه تتكافل الامة وتتضامن • يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى متحدثا عن دور وأهمية المسجد فى المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية : « ان اقامة المسجد أول وأهم ركيزة فى بناء المجتمع الاسلامى ذلك أن المجتمع المسلم انما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الاسلام وعقيدته وآدابه , وانما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه » (1) •

ثم ان الرسول (ص) قد وضع اللبنة الثانية فى بناء صرح المجتمع الاسلامى بمؤاخاته بين أصحابه من المهاجرين والانصار على الحق والمساواة وهذا هو الاساس الثانى الذى اعتمده الرسول(ص) فى سبيل بناء المجتمع الاسلامى والدولة الاسلامية يضمن به وحدة الامة وتساندها وليؤسس مبادىء العدالة الاجتماعية •

وكانت اللبنة الثالثة فى بناء صرح المجتمع الاسلامى هى كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم • وهذا الاساس هو أهم ما قام به النبى (ص) مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة الى جانب تطبيق الشورى فى وسط المسلمين حتى أصبحت صفة راسخة فيهم ملازمة لشخصيتهم الايمانية •

ويلاحظ أن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التى اتسمت بها معاملته (ص) لليهود وعلى أن الاسلام هو وحده الذى يؤلف وحدة المسلمين ويجعل منهم أمة واحدة وعلى أن من أهم سمات المجتمع الاسلامى ظهور معنى التكافل والتضامن فيما بين المسلمين بأوضح صوره وأجلاها وعلى مدى الدقة فى المساواة بين المسلمين من حيث انها ركن من الاركان الشرعية الهامة للمجتمع الاسلامى • وهكذا يظهر أن هذه الوثيقة تتضمن أسس الدولة الاسلامية• يقول الدكتور البوطى : «ومن تطبيق هذه الوثيقة والاهتداء بما فيها والتمسك بأحكامها قامت تلك الدولة على أمتن ركن واقوى أساس » (1) •

كذلك ان المسلمين بعد هجرتهم من مكة الى المدينة انتقلوا من مرحلة الصبر الايجابى الى الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن عقيدتهم وردا للعدوان وفيما بعد لتبليغ كلمة الله الى أنحاء العالم كافة •

كما أن الهجرة سنة حميدة للمسلمين فى كل العصور كى يتخلصوا من الاستبداد الذى يخنق حرية الاعتقاد لديهم وحرية ممارسة العبادات • يقول

---

(1) ن• م• ـ ص 203 •

(1) ن• م• ـ ص 219 •

رشيد رضا : « يؤخذ من علة وجوب الهجرة فى عهد التشريع أنها نجب بمثل تلك العلة فى كل زمان ومكان . فلا يجوز لمؤمن أن يقيم فى بلاد يفتن فيها عن دينه بأن يؤذى اذا صرح باعتقاده أو عمل بما يجب عليه . وان كان حكام تلك البلاد من صنف المسلمين ، ومن ذلك أن لا يقدر المسلمون على التصريح قولا وكتابة بكل ما يعتقدون ولا يتمكنوا من القيام بفريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المجمع عليه منهما » (1) .

وقد ذكر صاحب تفسير المنار فى مكان آخر أنه ورد فى الحديث أن الهجرة دائمة لا تنقطع حتى تمنع التوبة أى الى قبيل قيام الساعة . لذلك أفتى علماء المسلمين وفى مقدمتهم ابن العربى بوجوب الهجرة من دار الحرب الى دار الاسلام . فقد روى القرطبى عن ابن العربى : « أن هذه الهجرة كانت فرضا فى أيام النبى (ص) وهى باقية مفروضة الى يوم القيامة » . ومما يستدل به على ذلك قوله تعالى : **« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا»**(النساء 97 ، 98) (2)

ويذكر النسفى فى شرح هذه الآية : « ان من لم يتمكن من اقامة دينه فى بلد كما يجب وعلم أنه يتمكن من اقامته فى غيره حقت عليه المهاجرة . وفى الحديث من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه ابراهيم ونبيه محمد (ص) (3).

ودار الحرب هى كل بلد يناصب العداء المسلمين وللعقيدة الاسلامية ومثل دار الحرب فى ذلك كل بلد لا يتمكن فيه المسلم من اقامة الشعائر الاسلامية من صلاة وصيام وجماعة وآذان وغير ذلك من أحكامه الظاهرة .

نستطيع أيضا أن نستخلص من الهجرة النبوية الشريفة أن كل الصحابة رضوان الله عليهم قاموا بأدوار فى الهجرة والتمهيد لها من مصعب بن عمير الى أبى بكر الى عمر الى على وغيرهم . ومن

---

(1) رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ ط 4 ، مكتبة القاهرة ـ مصر 1960 الجزء الثانى ص 320 .

(2) الدكتور البوطى ـ ن. م. ـ ص 181 .

(3) تفسير النسفى ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ، لبنان ، المجلد الاول ، ص : 349 ـ 350 .

غير المعقول أن يعمل البعض على التفريق بين الصحابة وعلى الحط من شأن البعض منهم ظلما وعدوانا ·

وخلاصة القول أن الهجرة انقلاب هام في حياة المسلمين وتحول هام في مجرى التاريخ البشرى لانها الطريق الى اقامة القرآن في مجالات الحياة كافة وخاصة في مجال الدولة ولذلك اتخذها المسلمون بداية لتاريخهم بتوجيه من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى كان يدرك حق الادراك عظمة هذا الحدث التاريخى الهام.

فمن واجبنا اليوم أن نعود الى ظل هذه الهجرة ونستلهم منها معالم طريقنا في المستقبل خصوصا ونحن في بداية قرن هجرى جديد والله الموفق للصواب ·

الاســلام ومشاكــل التخلف

محمـد الثميـنى
مدير المدرسة العليا للتجارة
بجامعة الجزائر (سابقا)
والرئيس المدير الـعام
للبنك الوطنى الجزائرى

تـنـبـيـه

تلبية لرغبة الكثير مــن الاصدقاء انشر فيما يلى ملخصا لسلسلة من محاضرات القيتها فى مناسبات عديدة خلال شهر رمضان المعظم لسنــة 1401 هجرية وذلك بطلب مــن وزارة الشؤون الدينية ٠

رب زدنــى علمـا

الجـزائر فى 15 سبتمبر 1981 ٠

محمـد الثميــنى

بســم اللــه الرحمـن الرحيــم

ان كل شعوب العالــم الثالـــث وخاصة الشعوب الاسلامية لا تحتــاج الى تعريف التخلف لانها تعيشه وتحسه فى الحياة اليومية فى كل الميادين ، ولذلك فهى كلها تتطلع الى حياة افضل٠

التطلع الى حياة أفضل فى دنيانـا هذه هو شعور قبل كل شىء بالحرمان من ضروريات الحياة ، حياة الانســان

الذى هو اشرف مخلوقات الله بكونه خليفته فى الارض ، « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى اعلم ما لا تعلمون** »(1) » صدق الله العظيم ».

والتطلع الى حياة افضل هو علاوة على هذا رغبة ملحة فى الخروج من التخلف أى من الجاهلية كما كان يعبر عنه فى صدر الاسلام أى الخروج من الحالة التى كان عليها المجتمع العربى قبل الاسلام ٠

والتطلع الى حياة افضل هو فوق كل هذا عند المسلمين ارادة وعمل للخروج من الظلمات الى النور ، بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتغييره ، « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » ٠ أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ فالانسان المسلم بايمانه وارادته وعمله فى سبيل تغيير المنكر وتحقيق المعروف يسمو الى درجة خليفة الله فى الارض ٠

هذا وان حدة الشعور بالحرمان من ضروريات الحياة لتتفاقم من سنة الى أخرى لعاملين أساسيين هما تزايد نسبة عدد السكان وتدهور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى البلدان المتخلفة لعجز هذه البلدان من رسم استراتيجية محكمة من الخروج ولو بمراحل من حالة التخلف ٠

وهذا ما حدا بالكثير من المفكرين والاقتصاديين ونذكر خاصة الاقتصادى السويدى الشهير ميردال بالتكهن الى ان اتساع الهوة بين البلدان المتطورة والمتخلفة سيخلق عواقب وخيمة وسينتهى الامر الى كارثة من النمط الماركسى بحجم يشك أن ماركس نفسه قد توقعه (2) ، ان كل الاصوات التى أرتفعت بعد ميردال من ساسة ومسؤولين فى الامم المتحدة وكل الجهود التى بذلت أثناء لقاءات دولية وجهوية ، كلقاءات مجموعة دول 77 أو الحوار بين الشمال والجنوب أو ملتقى رومة ... الخ ٠ لم تفلح الى حد الساعة من ايجاد أى حل للكارثة التى يتوقعها الجميع ٠

ان الشعور بالحرمان فى البلدان الاسلامية خاصة وبلدان العالم الثالث عامة هو شعور حقيقى موضوعى ناتج عن وجود أمراض وآفات اجتماعية من جوع وانتشار الامية ومن أمراض متفاوتة الخطورة وآفات اجتماعية ، كتعاطى المشروبات الكحولية والحشيش ، وكالعبودية والعنصرية والطائفية وانتشار الزنا واستغلال الانسان لاخيه الانسان

... الخ . ويجدر بنا فى هذا المقام ان نشير الى ان التطلع الى حياة افضل هو شعوز نفسانى ربما كان وهميا فى بعض الاحيان فى الاوساط غير المحرومة والتى هى فى يسر وليست فى عسر اعنى الاوساط البرجوازية .

ان هذه الظاهرة طبيعية ناتجة عن تقليد سلوك المجتمعات الاستهلاكية التى تستهلك لا عن حاجة موضوعية بل عن حب للترف والتبذير ، ان ما تستهلكه هذه المجتمعات فوق الحاجة كالماء المالح الذى لا يزداد شاربه شربا الا ازداد عطشا ، كما ان المستهلك فى حالة كهذه كالكلب ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث .

ان هذه الظاهرة نجدها فى البلدان المتقدمة وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية وفى الاتحاد السفياتى اعظم بلدان العالم وذوى أنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة . نجد هذه الظاهرة فى الاوساط الغير محرومة وفى الاوساط الراقية منها .

ولقد شخصها وندد بها مفكرون وصحافيون وكتاب كثيرون فى كلا المعسكرين الرأسمالى والشيوعى .

ان هذه الظاهرة يعنى الاستهلاك للاستهلاك جعلتنا نسمى المجتمعات فى تلكم البلدان مجتمعات استهلاكية لان الفراغ الايديولوجى الذى تتسم به المجتمعات الاستهلاكية جعلها تتخذ من الاستهلاك هدفا وفلسفة فى الحياة لتشغل نفسها عن الحيرة التى تعتريها والمنتشرة فى كل الاوساط والتى استفحلت الى ان صارت من اخطر الآفات الاجتماعية .

هذه الآفة ناتجة عن عدم توفق الايديولوجيات المعاصرة على القضاء على الحيرة فى مصير العالم وفى الشك فى صلاحيات الانظمة المعاصرة حتى ان الانسان الدارس للاوضاع بدون تعصب وبكل موضوعية صار يدرك ان اشباع الغرائز وتلبية الرغبات وسد الحاجيات ان جعلها المرء غاية لا وسيلة سوف تنزل بالانسان الى مستوى البهائم بدلا من ان تسمو به الى درجة خليفة الله فى الارض، لهذا السبب قرن الله دائما الاطعام من الجوع بالامن من الخوف ، « **فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** » (3) « صدق الله العظيم » . الأمن من الخوف يقضى على الحيرة التى هى آفة آخر هذا القرن ، ان مقاومة التخلف اذا اقتصرت على اشباع الحاجات الاقتصادية دون القضاء على الحيرة سوف تهوى بالمجتمعات المتخلفة وخاصة الاسلامية منها فى الاقتصادانية كما أكده المرحوم مالك بن نبى الذى قال فى كتابه، المسلم فى عالم الاقتصاد : « يبدو ان

العالم الاسلامى فى هذه الآونة مصاب بهذا الداء ، الاقتصادانية ، لانه انتقل من عدم الوعى الاقتصادى الشامل الى الحصر الاقتصادى كانما ليس للمسلم الا سبيل واحد للتفتح : ان يكون بشرا اقتصاديا وان لا يكون غير هذا .

فتوعية الانسان المسلم فى الميدان الاقتصادى يجب ان لا تجره الى وثنية جديدة بحيث يصير من عباد صنم جديد اسمه الاقتصادانية أو حتى الاقتصاد»(4)

فالوثنية الجديدة التى هى ظاهرة الانظمة المتقدمة المعاصرة هى التى جعلت من المواطن غايته الاستهلاك ومن اشباع الغرائز الحيوانية هدفا للانشغال عن الحيرة والقلق واضطراب النفس وعدم الاطمئنان .

ناهيكم ان المؤرخ والفيلسوف الانكليزى الراحل أرنولد طونبى تكهن منذ سنة 1947 عن دور الاسلام فى وسط الانقاض والفوضى التى يحدثها لقاء الحضارات فى عصرنا هذا ، ولقد قال ان للاسلام « رسالة مزدوجة : النضال ضد الكحول وضد التمييز العنصرى ، اما تاثير الاسلام على البروليتارية العالمية الجديدة التى خلقها التصنيع فنتائجه حميدة ، والاسلام وسيلة لملء الفراغ الفكرى الذى تحدثه الحضارة الغربية فى البلدان الاستوائية خاصة لان الحضارة الغربية تملأالفراغ الاقتصادى والسياسى أما الاسلام فهو يحمل معه أهدافا جديدة رفيعة » (5) .

كما أن ملتقى رومة يرى أن الكثير من الامراض الاجتماعية كتعاطى المخدرات والجرائم والقتل الجماعى وشبح الحرب العالمية الثالثة سببه التنمية الفوضوية العمياء ، التنمية فى سبيل التنمية (6) .

ان القضاء على التخلف فى أوطاننا الاسلامية لا يمكن ان يتحقق بتقليد النظام الرأسمالى ، أو النظام الشيوعى تقليدا أعمى بدون الرجوع الى أصالتنا الاسلامية.

لذلك كان أرنولد طونبى يشك فى نجاح الثورة الكمالية فى تركيا لانها كانت تقلد الغرب فى محاولتها الخروج من التخلف بتركيزها على القومية التركية بدلا من الايديولوجية الاسلامية . «فالحركة الاسلامية هى فى سبات ــ كما كتب ــ وبالرغم من ذلك يجب الاخذ بعين الاعتبار احتمال اليقظة اذا ثارت البروليتارية المتغربة ضد السيطرة الغربية ونادت بأصوات عالية مناهضة للغرب ، فهذا النداء قادر على ايجاد نتائج نفسية ليس لها حصر على الفكرة الجهادية فى الاسلام وذلك بايقاظ اصداء العصور البطولية » (7) .

فتنبوءات أرنولد طونبى هذه صارت تتحقق فى البلدان الاسلامية وخاصة فى الجزائر ابان حرب التحرير عندما كان المجاهدون الجزائريون يخوضون المعارك باسم الاسلام ، الاسلام الثورى، الاسلام الاشتراكى ، وفى ايران كذلك ·

وفى رأينا ان الثورة الاسلامية الايرانية ثورة شعبية وان الصعوبات التى تواجهها ناتجة عن عدم درس مبدأ اسلامى مقدس ألا وهو مبدأ الشورى درسا علميا وعدم تطبيقه تطبيقا منطقيا محكما بل طبقته بطريقة فوضوية حتى آل بها الامر الى الخلط بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، ولقد ادرك الامام الخومينى نفسه خطورة الوضع الناتج عن تداخل السلط وحذر فى 11 فيفرى 1981 رجال الدين من التدخل فى شؤون الدولة (8) ·

ومهما يكن الامر فان محاولات كل انظمة البلدان الاسلامية المعاصرة من الخروج من التخلف ناتجة اما عن تقليدها الاعمى للانظمة الاخرى كما اشرنا أو عن سلوك سياسة الاصلاحات دون تحقيق ثورة اجتماعية وثقافية وسياسية شاملة·

ومن المؤسف كما اشار اليه المرحوم مالك بن نبى ان كل الاصلاحات فى البلدان الاسلامية تكاد تقتصر على الميدان الاقتصادى تقليدا للانظمة الراسمالية أو الشيوعية « وفى كلا الاتجاهين نراه ـ أى العالم الاسلامى ـ فى محاولة تركيب روح اسلامية على جسم أجنبى يرفضها وترفضه » (9) ·

ان العالم الاسلامى يرفض كما هو واضح التجربة الغربية الليبرالية بخوضه معارك التحرير من هيمنة الاستعمار الراسمالى ·

فهو يرفض أيضا التجربة الشيوعية فى الجمهوريات السوفياتية الاسلامية · ومن المفيد جدا أن يقرأ المرء الكتب التى تناولت هذه النقطة بالذات ، ان فى كتاب الامبراطورية المتصدعة للكاتبة الشهيرة ايلين كاريودا نكوص (10) تحليلا علميا مشكورا للاوضاع فى الجمهوريات السوفياتية · ترى الكاتبة ان المسلمين رغم تعدد مذاهبهم يشعرون خلافا لكل الديانات الغير اسلامية بوحدة كاملة وانهم يكونون أمة رغم اختلاف لغاتهم وأجناسهم ، وهذا الشعور بعد ستين عاما من التجربة الشيوعية يتزايد من سنة الى أخرى خاصة فى أوساط الشباب الذى ترعرع فى الايديولوجية الماركسية، والقادة السوفياتيون أنفسهم فى حيرة لانه رغم التركيز على الوطنيات واللغات الوطنية والثقافات الشعبية طيلة ستين عاما ظهر فى الجمهوريات الاسلامية

السوفياتية شعور تضامنى حضارى وثقافى لا شعور دينى محض فحسب ، وتلاحظ الكاتبة متعجبة ان تراث الشعوب الاسلامية السوفياتية وثقافاتها قبل الاسلام قد ادمجتها تلك الشعوب ادماجا كاملا فى ثقافاتها الاسلامية ولم تكن حائلا دون الشعور التضامنى الاسلامى (11) .

واعجب من هذا كله ان شعب جمهورية داقستان الذى لم يضطهد قط وخاصة المثقفين منهم ثقافة روسية يطالبون باستبدال الروسية بالعربية لان هذه الاخيرة هى « لاتينية المشرق » (12)، على حد تعبيرهم .

وهذه الملاحظة الاخيرة تخصنا نحن فى الجزائر لانها تبين بوضوح ان الشعب الجزائرى يطالب بالتعريب لانه مسلم قبل كل شىء ، هذا وان الشعور التضامنى الاسلامى فى الجمهوريات الاسلامية السوفياتية تبلور الى درجة ان طرح المشكل على المستوى الحضارى ـ ناهيكم انه فى المؤتمر الاسلامى المنعقد فى تاشكنت سنة 1970 أكد كثير من الخطباء ان الاسلام سبق الاشتراكية المعاصرة باعلانه منذ أربعة عشر قرنا مبادىء الحرية والعدالة والمساواة والاخاء (13) .

والواقع ان الزعماء الشيوعيين المسلمين قد طرحوا على بساط البحث منذ اندلاع الثورة البولشفية فى سنة 1917 مشكل دور الاسلام فى البلدان الاسلامية السوفياتية ولكن صراحتهم وبعد نظرهم قد تسبب فى اقصائهم ومحاكمتهم ونفيهم وسجنهم .

وهذا ما وقع بالضبط للسيد سلطان ڤاليڤ مساعد ستالين منذ سنة 1917 وزعيم الجمهورية البولشفية التتارية منذ سنة 1920 ، وقد طرد سلطان ڤاليڤ من الحزب الشيوعى فى سنة 1923 ثم حكم عليه بالسجن والنفى فى سنة 1929 .

والذنب الذى ارتكبه سلطان ڤاليڤ هو طرحه ثلاث مشاكل على زملائه فى الحزب الشيوعى :

ـ مشكل تلاؤم الاشتراكية السوفياتية مع المجتمعات الاسلامية التى لم تبلغ بعد مرحلة الرأسمالية .

ـ مشكل دور الاسلام فى العالم الاشتراكى .

ـ مشكل مكانة البلدان المستعمرة فى الاستراتيجية العالمية الشيوعية (14).

ان الزعماء السوفيات أنفسهم يرون اليوم ان الحركة الاسلامية لم تقض عليها التجربة الشيوعية ، وان النهضة الاسلامية الحالية فى البلدان السوفياتية الاسلامية تثير فى أنفسهم تخوفات لانها

من شأنها ان تهدد كيان الدولة السوفياتية وذلك لان المشكل صار حضاريا .

وليس معنى ذلك ان الاسلام صار يقاوم النظام السوفياتي بل لان الرجل المسلم صار ينافس سلميا الرجل السوفياتي ، الذي يعتبر الرجل المثالي في الجمهوريات السوفياتية .

والمسلمون السوفياتيون يعتبرون الرجل المسلم الرجل المثالي واما الرجل السوفياتي فما هو الا مرحلة في سبيل تكوين الرجل الامثل (15) . ذلك لان الاسلام كما قلته في مشروع لائحة قدمته الى المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي في الربيع من سنة 1976 بمناسبة مناقشة مشروع الميثاق الوطني « ليس بدين فحسب وانما هو نظام حياة وايديولوجية فهو يعطينا عن الانسان والكون نظرة منطقية وموضوعية تتلاءم مع العصر والتاريخ » .

التخلف لا يتجزأ فهو تخلف في كل الميادين العقائدي والاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي ، أو لا تخلف . ولمقاومة التخلف يجب رسم استراتيجية محكمة متكاملة وبدون هذا سوف تذهب كل المجهودات هباء منثورا ، يجب ان تصير استراتيجيتنا لمقاومة التخلف في ايديولوجية مستوحات من اصالتنا الاسلامية ، وهذا هو الشرط الوحيد لضمان نجاحها ، ولكن يجب علينا ان نتفق هنا على الاسلام الذي نطالب به وننشده ، انه اسلام القرآن والسنة ، اسلام الخلفاء الراشدين ، اسلام العدالة الاجتماعية الحقة ، الاسلام الذي تحدث عنه الميثاق الوطني بأحرف ذهبية حيث قال : «الاسلام هو أحد المقومات الاساسية لشخصيتنا التاريخية ، وقد ثبت انه هو الحصن المنيع الذي مكن الجزائر من الصمود في وجه جميع محاولات النيل من شخصيتها . فقد تحصن الشعب الجزائري بالاسلام ، دين النضال والصرامة والعدل والمساواة واحتمى به في احلك عهود السيطرة الاستعمارية واستمد منه تلك الطاقة المعنوية والقوة الروحية التي حفظته من الاستسلام للياس ، واتاحت له أسباب الانتصار .

وان ما أصاب العالم الاسلامي من انحطاط ، لا يمكن تفسيره بالاسباب الاخلاقية البحتة ، بل هناك عوامل اخرى ذات طابع مادي واقتصادي اجتماعي ، كالغزو الاجنبي ، والفتن الداخلية ، وتصاعد الاستبداد ، وانتشار الاضطهاد الاقطاعي واضمحلال بعض الانظمة الاقتصادية العالمية . وقد كان لهذه العوامل كلها دور حاسم فيما آل اليه

المسلمون ، لذلك فان ظهور الخرافات والشعوذة ، وانتشار العقليات التى تعيش على الماضى ، ليست من أسباب تلك الوضعية وانما هى فى الحقيقة من نتائجها • وهكذا يتجلى ان التركيز على محاربة هذه الانحرافات دون العناية البالغة بالبيئة الاجتماعية ، هو بمثابة الوقوع فى عملية وعظية لا جدوى من ورائها • والواقع ان العالم الاسلامى ، لابد له ، اذا ما أراد ان ينبعث من جديد، ان يجتاز مرحلة الاصلاح ليخوض غمار الثورة الاجتماعية •

ان الثورة لتندرج تماما فى المنظور التاريخى للاسلام • لانه فى مفهومه الصحيح ، لا يرتبط بنوع من المصالح الخاصة ولا يخضع لاى كهنوت أو أية سلطة زمنية ، ولهذا فلا يحق للاقطاعية ، ولا للرأسمالية ان تتخذ الانتماء اليه ذريعة لخدمة مصالحها وقضاء مآربها • لقد جاء الاسلام بمفهوم رفيع للكرامة الانسانية ، يدين العنصرية وينبذ النعرة الشعوبية واستغلال الانسان للانسان ، وان المساواة المطلقة التى نادى بها الاسلام ، تنسجم وتتلاءم مع كل عصر من العصور •

اذن ، يتحتم على كل الشعوب الاسلامية التى أصبح مصيرها مرتبطا بمصير العالم الثالث ان تكون واعية بالمكاسب الايجابية لتراثها الثقافى والروحى ، وان تستوعبه من جديد على ضوء القيم والتحولات الجارية فى الحياة المعاصرة ومعنى هذا ان أية محاولة جادة تهدف اليوم الى اعادة بناء الفكر الاسلامى يجب ان تمتد حتما الى تحوير بنية المجتمع تحويرا كاملا •

ان الشعوب الاسلامية مدعوة فى عصرنا هذا ، عصر التحولات الاجتماعية الحاسمة الى تقويض أركان الاقطاعية البائدة ، والقضاء التام على جميع أشكال الاستبداد والجهل •

وسيتزايد ادراك الشعوب الاسلامية بانها ، حين تعزز كفاحها ضد الامبريالية وتسلك طريق الاشتراكية بكل حزم ، ستقوم على احسن وجه بما تفرضه العقيدة الاسلامية من واجبات » (16) •

وانى اذ استشهد بالميثاق الوطنى فلاننى عشت ظروف مناقشة المشروع التمهيدى وساهمت بكل تواضع فى اثرائه خصوصا فى نقطة الاسلام بالذات كما انى اعترف واشهد ان النص الحالى فى معالجته الاسلام مساهمة ايجابية وثورية تعطى للجماهير الاسلامية عن الاسلام وجها ثوريا تقدميا ، وتمكن المسؤولين فى وطننا من طرح قضية التخلف طرحا كاملا فى اطار المدنية الاسلامية •

ويرى الفيلسوف الفرنسى الشهير روجى ڤارودى ان التنمية الحقة ليست مشكلا اقتصاديا أو سياسيا فحسب بل هو مشكل دينى لان الذى يهمنا أساسا هو معنى حياتنا والهدف الذى تنشد ، ولا عجب اذن ان نرى الديانات تجند الجماهير أكثر ما تفعله السياسة ، فباسم الديانات العصرية تقاوم الآن انماط التنمية الغربية ٠

لذلك يعتقد الفيلسوف قارودى انه يمكن تحقيق الاشتراكية عن طريق الاسلام لان « الاشتراكية الاسلامية يمكن لها ان تفسح لنا مجالا جديدا ــ فهى لا تهدف فحسب الى القضاء على الحواجز التى تعترض تطوير الانتاج وتحقيق توزيع جديد للدخل ، ولكن الى طرح مشكل الغاية والمعنى الانسانى للانتاج والاستهلاك » (17) ٠

ان رأى قارودى يتفق تمام الاتفاق مع ما كتبه المرحوم مالك بن نبى الذى يرى كما اسلفنا ان طرح قضية استراتيجية التنمية بتقليد ايديولوجيات الغير ، « انما هو تركيب روح اسلامية على جسم أجنبى يرفضها وترفضه » ٠

ولقد اتخذ الميثاق الوطنى نفس الموقف عندما اعطى تعريفا للاشتراكية بالجزائر حيث قال :

« ان الاشتراكية فى الجزائر لا تصدر عن أية فلسفة مادية ولا ترتبط بأى مفهوم متحجر غريب عن عبقريته الوطنية.

وان بناء الاشتراكية يتماشى مع ازدهار القيم الاسلامية التى تشكل أحد العناصر الاساسية المكونة لشخصية الشعب الجزائرى » (18) ٠

ولكن ما هى استراتيجية الاسلام فى مقاومة التخلف ؟

أتى الاسلام كما يعلم الجميع فى ظروف ملائمة تماما حيث تعفنت الاوضاع فى كل الاوساط لا العربية فحسب بل فى العالم بأسره الى درجة ان المؤرخين أسموا القرن الذى ظهر فيه الاسلام بعصر النور لان عصر ما قبل الاسلام هو عصر الظلمات عصر الجاهلية ٠ الجهل مخيم على كل الاوساط ٠

ــ أهل الكتاب تنكروا للمبادىء المقدسة والديانات السماوية وانحرفوا عنها ــ الوثنية قضت على كل القيم وأنزلت الانسان الى مستوى البهائم ــ الشعوذة والسحر والخرافات والعادات القبيحة طغت على كل الاوساط الى درجة ان البنت يتشاءم منها وتدفن حية **«واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت»**(19)
ــ آفات الطائفية والقبلية والاقطاعية والعبودية والفقر والربا والزنا والكحول تفتك بالمجتمع ٠

ولا غرو والحالة هذه ان يكـون فى المجتمع العربى آنذاك طبقات ٠

ـ طبقة العبيد الشبيهـة بالحيوانات تباع وتشترى وتعامل بـــدون شفقـة ولا رحمـة ٠

ـ طبقة الرعايا من الفقراء والكادحين المستغلين من قبل الاسياد ٠

ـ طبقة الاشراف والاغنياء الذيـــن يستغلون العبيد والفقراء لما لهم من حق مزعوم فى السيادة ٠

فهذه الحالة ساعدت كثيرا على جعل التفاوت بين طبقة الاغنياء وطبقة الفقراء يتفاقم مـن يـــوم لآخـر حتى استحال التقريب بين الطبقتين رغـــم الثـورات الدامية اليائسة التى كثيرا ما تكون فيها الغلبة لدولة الاغنياء ـ وكان من نتيجة هذا كله ان تكدست الثروات بين أيدى فئة قليلة تسرف وتبذر وتعيث فى الارض فسادا بينما السواد الاعظم من الشعـب الكادح يستغل على أرض أحياها بعرقه ورواها بدمه فلم يكن لهؤلاء المعذبين فى الارض حيلة ولا ملجأ سوى الاستسلام أو المقاومة اليائسة ٠

كيف عالج الاسلام هذه الاوضـاع واصلحها فى فترة قصيرة من الزمان حتى تقبل النظام الاســلامى واعتنقه عـــن طواعية أكثر من نصف العالم آنذاك فى أقل من ربع قرن ؟

أبالحديد والنار كما تفعله حاليـــا الانظمة الامبريالية والدكتاتوريات ؟ كلا وألف كلا باعتراف كـل المؤرخين غـير المسلمين ٠

رسالة الاسلام كانت رسالة سـلام توخى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم لبث الدعوة الطرق السلمية مـن اقناع بالوعظ والارشاد وباستعمال الحكمـــة والمنطق ومتجنبا العنف والاكراه ومتحملا فى ذلك كل مكروه واذى ، بصبر وجلد **« واصبر وما صبـرك الا بالله » (20) « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسـن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »** (21) لانه **« لا اكراه فى الدين »** (22) (صدق الله العظيم) ٠

كان الرسول صلى الله عليه وسلـم عندما بدأ التبشير وحيدا ولكن الافكـار الثورية التى كان يبثها سرت كالبرق عبر الاقطار والقارات ، فتوحيد الاله جل وعلا وتفسير الكون والكائنات ومقاومة الجهل والخرافات والدعوة الى تحرير العبيد من ربقة الاسياد والى كسر اغلال الاضطهاد والاستغلال والاستبداد والى التساوى بين جميع الناس فى الحقوق والواجبات والى القضاء على الفقر والمرض وكل الآفات احدث دويا وثورة اجتماعية وهز كـل الاوساط ، وهدد أركان اعظم الدول لان

السواد الاعظم من الشعوب داخل الجزيرة العربيـة وخارجهـا استبشر بالرسالـة المحمدية وكان ينتظر بفارغ صبر يـوم التحرير والخلاص يـوم الخروج مـن الظلمات الى النور ٠

النور هو قبل كل شيء توحيد المولى جـل وعـلا اللـه الاحـد اللـه الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد ، الخالق لكل شيء وهو على كل شيء قديـر ٠

النور هو الله نور السماوات والارض هو نور على نور به يستضاء كـل شيء وبدونه يغرق المرء فى الظلمات الحالكات الرسالة المحمدية اعطتنا تفسيرا لوجود الكون ولم تنكر الديانات السماوية بل اعترفت بها وبكل الرسل ٠ « **آمـن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسلـه لا نفرق بين أحد من رسله** » (23) (صدق الله العظيم) ٠

قضت الدعوة المحمدية فى سنواتهـا الاولى على كل الانحرافات والخرافات لان الرسول صلى الله عليه وسلم فى مقاومته الجهل والظلم بدأ باخطرها على المجتمع الا وهو الشرك لان الشرك ظلم عظيـم وعندما نجح فى مهمته هذه وافلح طمأن نفوس الناس وآمنها من الخوف وقضى على الشك والحيرة . منذ ذلك الحين كان طريق الدعوة المحمدية معبدا وكان نجاحها محققا لان الرسول صلى الله عليه وسلم وجد آذانا صاغية وقلوبا واعية وافئدة منقـادة ٠

لم يكون الرسول صلى الله عليه وسلم حـزبا طلائعيا من افراد متحمسـين متعصبين ليستحوذوا على الحكم بالقـوة بل كان وحيدا فى البداية وقد ركـز اهتمامه على اصلاح الفرد وخلق الرجـل المسلم المثالى اذ باصلاح الافراد يصلح المجتمـع ٠

فالثورة الاجتماعية الاسلامية مبنيـة اساسا على الجهاد الاكبر جهاد النفس يعنى اصلاح الافراد بالامـر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظ والارشاد ، ولا عجب اذن ان دخل الناس عن طواعية فى دين الله أفواجا وانقلبت الاوضـاع فى بضع سنوات وانتقل حزب الله من حزب الاقلية الى حزب الاغلبية الساحقة من الشعب بالطرق السلمية ولم تستعمل القوة اى الجهاد الاصغر الا دفاعا عـن النفس ولمقاومـة الكفـار والمنافقـين المناهضين للمسلمين ٠

انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة الجهاد الاكبر يشكل مرحلـة حاسمة فى الدعوة الاسلاميـة ويضمن نجاحها ٠

مقاومة الظلم والتخلف تبدأ بمقاومة النفس الامارة بالسوء ونجاح الرسـول

صلى الله عليه وسلم فى ذلك مكنه من اصلاح الافراد واكتسابها ، ومن أحداث ثورة اجتماعية شاملة عن طريق هؤلاء الافراد ، وفشل كل ثورة اجتماعية فى العالم يفسر بفشلها فى اصلاح الافراد واعتنائها بالمجتمع ككل قبل اعتنائها بالفرد كجزء من ذلك المجتمع ٠

ولاحداث ثورة اجتماعية شاملة اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم اجراءين :

1 ـ مقاومة الجهل بكل انواعه ،

2 ـ مقاومة الفقر بكل أشكاله ٠

1 ـ مقاومة الجهل :

قال ملك الوحى فى أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

ـ اقرأ ٠

ـ فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ ما أنا بقارىء ٠

ـ قال الملك مرة ثانية : اقرأ ٠

ـ فكان نفس الجواب ما انا بقارىء ٠

ـ فقال للمرة الثالثة : **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم** (24) ٠

أول أمر تلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم من ملك الوحى هو اذن التعلم وقد تكررت مادة العلم فى القرآن الكريم 850 مرة (25) ٠

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ٠ طلب العلم الحقيقى الكامل لا رفع الامية فحسب بتعلم القراءة والكتابة ٠

ويقصد بالعلم كل العلوم بدون استثناء علوم الدنيا وعلوم الدين « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما جميعا فعليه بالعلم » أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

ولقد أشاد الله بالعلم الى درجة انه اقسم بالقلم حين قال جل وعلا « **ن والقلم وما يسطرون** » (26) ٠ والانسان العالم الملم بكل علوم الدين والدنيا هو الذى يستحق ان يكون خليفة الله فى الارض ٠ «**انما يخشى الله من عباده العلماء**» (27) « **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » (28) صدق الله العظيم ٠

والجدير بالذكر ان الكثير ممن اعتنقوا الاسلام فى أوروبا وأمريكا هم من العلماء الفطاحل ، اعتنقوا الاسلام بفضل بحوثهم العلمية وتمعنهم فى ملكوت السماوات والارض كما انه من الاسباب الكبرى لانحطاط المسلمين وتخلفهم اعراضهم عن العلم الحقيقى بغلقهم باب الاجتهاد ٠

ويقول الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء : « ان غلق باب الاجتهاد كان صدمة ممهدة لبداية عهد الانحدار الفقهى » (29) ٠

2 ـ مقاومة الفقر :

الفقر أمـر نسبى ويمكن النظر اليه من زاويتين :

أولا : الفقر بالنسبة للاغنياء أى عدم التساوى بين الناس فى الرفاهية ومستوى المعيشة وعدم الغنى والثراء ٠

فهذا الفقر أمر وهمى ناتج عن تقليد لمن هم فى يسر كما اسلفنا ، ولا يمكن لاى نظام مهما كان ان يمحو التفاوت فى الرزق « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فـوق بعض درجات ليتخـذ بعضهم بعضا سخـريا** » (30) (صدق الله العظيم) ٠

ثانيا : اما الفقر الحقيقى فهو عدم امتلاك ما يكفى الحاجة ، فهذا الفقر هو السبب فى أمراض اجتماعية كالجوع ، والعرى ، والمرض ، والتشرد ، والهوان ، والبطالة ، ٠٠٠ وقد عالـج الاسلام هذه الآفة ، آفـة الفقر وما يترتب عنها من امراض بحكمة وفى اطـار نظام محـكم كفيل بان يمحو الآفة محوا كاملا ٠

فهذا النظام المحكم هو نظام اقتصادى متكامل الاجزاء ولا يمكن مسخه باخـذ البعض منه وترك البعض الآخر ٠

وانا نستعرض النقاط الاساسية من هذا النظام فيما يلى :

- نظام الزكاة ٠
- نظام الانفاق فى الصالح العام ٠
- تحريم الربا تحريما قطعيا ٠
- نظام الميراث ٠
- تحرير العبيد ٠

الزكاة هى ضريبة على رؤوس الاموال لا الارباح فقط لان الاموال يمكن حصرها واما الارباح فيمكن كتمانها مـن طـرف اصحاب رؤوس الاموال ٠

فمبدأ تقرير الزكاة التى هى حـد أدنى يقدمه صاحب رأس المال لبيت المال مبدا ثورى لاسباب ثلاثة :

1 ـ الزكاة ليست صدقـة ولا منـة ولا التفاتة من الغنى وانما هى واجبة على الغني وحق للفقير عليه مهما كان سبب الفقـر ٠

بهذا الاجراء جعـل الاسلام حـدا لاستغلال الاغنياء للكادحين اذ كان هؤلاء فى الجاهلية يسخرون لخـدمة اسيادهم ويدفعون أرواحهم فداء لهم ٠

2 ـ والزكاة كضريبة على رأس المال تضع صاحب رأس المال أمام مسؤولياته فاما ان يستثمر راس مالـه فى مشاريع منتجة يتمكن بها من تحقيق ربـح كاف بعد أداء الزكاة عليه واما ان يستثمره فى مشاريع الدولة ٠ فلا يمكن له كنـزه

بأية حال لان استمرار دفع الزكاة عليه استهلاك لرأس المال ٠

3 ـ وأخيرا فان الزكاة التى تدفع للدولة على الطريقة الاسلامية تمكن المسؤولين من التصرف فى أموال تفوق غالبا حاجيات الدولة لانه كما ذكرنا يمكن دائما ضبط كل الاموال بينما يستحيل ذلك فى ما يخص الارباح ٠

فبهذه الوسيلة يمكن لاولى الامر استكشاف كل الثروات وتطبيق سياسة من أين لك هذا ؟

كل هذه الاسباب توضح لنا حكمة اعتبار الاسلام الزكاة ركنا من أركان الدين وقرن حتميتها بحتمية الصلاة : **« واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (31)** ٠ وتجعلنا أيضا ندرك تمام الادراك الغاية المقصودة من تنديد الله جل وعلا بكانزى رؤوس الاموال وجامعيها بطرق غير مشروعة كالارتشاء والمضاربة ٠

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » (32) ٠

« ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون» (33) ٠

والخليفة أبو بكر رضى الله عنه كان موفقا فى صلابته وحزمه ابان حرب الردة ٠ فهذه الحروب لها أسباب اقتصادية ٠ اذ هى ثورة الاغنياء الذين جعل الاسلام حدا لامتيازاتهم ٠ اراد الاثرياء انذاك الرجوع الى عهد الجاهلية عهد الاستغلال فأبى أبو بكر ان يساومهم ولو فى عقال وفضل قتالهم والضرب على ايديهم ٠

فاذا كانت الزكاة كما سبق فرضا عينيا ثابتة فى ذاتها كركن من أركان الاسلام محددة فى أوجه ادائها ، فهناك مبدا آخر لا يقل عنها أهمية ولا وجوبا ، وهو مبدأ الانفاق فى الصالح العام ٠

ففى الظروف الطارئة كالمجاعة وتفاقم عدد السكان أو الحروب والزلازل والقحط وما الى ذلك من ويلات وحالات تجعل المجتمع مهددا ، فالصالح العام والتضامن الاجتماعى يحتمان تدابير استثنائية ٠ فعلى الحكومة ان تاخذ المال حيث يوجد وعلى الموسرين ان يمتثلوا وان يتسارعوا الى البر والاحسان ٠ فليس هناك حد فى ما يدفعه الموسر قدرة أو المعسر قدرة فالكل سواء فى الواجب ، وعلى كل ان يساهم بحسب طاقته اذ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ٠

فهذا المبدا الذى يطبق فى حالات معينة من شانه ان يضيق على الملكية الفردية اذا اقتضت الحال ٠ ولكن ليس معنى ذلك ان الاسلام لا يحترم الملكية

الفردية وانما يقرها على أساس ان لـها وظيفة اجتماعية فى خدمة الصالح العام .

على ان الملكية الفردية التى يقـرها الاسلام ليست ملكية مطلقة بل محددة فى ذاتها · فانتزاع الملكية واجب اذا كان فى الصالح العام عـلى شرط ان يعوض المالك تعويضا عادلا على ما اكتسبه بطرق مشروعة ·

والملكية الفردية يصعب ان تتسـع اهميتها فى مجتمع كالمجتمع الاسـلامى يطبق فيـه نظام الضرائب عـلى رؤوس الاموال ويحاسب فيه المرء حسابا عسيرا على كل ما يملكه وتنتزع تلك الملكية اذا اقتضت الحال ويضرب على ايدى المرتشين والمضاربين والذيـن يكنزون الـذهب والفضـة ·

على انه اذا مـا قدر للمرء ان يجمع ثـروة هائلة رغم هذه المضايقات فهناك اجـران آخـران يمنعانـه من تكـديس الثروات وهما تحريم الربا ونظام الارث.

فتحريم الـربا يمنـع الانسان مـن استثمار ماله فى مشاريع غـير منتجة أو بواسطة آخرين أى فى عمليات احتكارية أو مضاربة بـل يحتم عليـه استثماره بنفسه أو بتكوين شركات يتساوى فيهـا الشركاء فى الغنـم والغـرم · اما نظام الارث فهـو يفتت الثروة بـين الوارثين الذين هـم كثيرون فى غالب الاحيان · فان لم يكن للهالك وارث فالثروة تذهب كاملة الى بيت المـال , كما ان الهالـك لا يمكن له ان يوصي باكثر من ثلث ماله ·

واما الاسترقاق فقد كان شائعا فى كل العالم ومعمولا به فى كل الدول ·

والاسلام سلك منذ أربعة عشر قرنا سبيلا منطقيا فى القضاء على الاسترقاق، فمن ناحية المبدأ فهو يوصى بتحريـر الرقاب فى كل مناسبة والقرآن الكريم زاخر بآيات كثيرة فى هذا المضمـار · هذا وقد خصص الاسلام جزءا من ميزانية بيت المال « **فى الرقاب** » (34) ·

الا أن الامر ليس بهين لان العبيد فى كل الاقطار هم قوة اقتصادية تستثمـر بابخس الاثمان وبدون شفقة ولا رحمة كما تستعمل الحيوانات فهم ملك للاسياد والاعيان وأرباب الصناعات والحـرف , فالاسلام عندما اتخذ موقفا صريحا فـى سبيل تحرير كل العبيد كان مدركا كل الادراك ان المسالة ليست بهينة وانهـا تستلزم سياسة حكيمة لتهيئة الافـكار آنذاك لقبول مبدأ تحرير العبيد ·

لذلك علاوة على الموقف الصريح فى سبيل تحقيق هذا الهدف أوجب الاسلام معاملة العبيد معاملة انسانية ·

فالعبيد يتمتعون بكل حقوق اسيادهم يأكلون ويشربون مما يأكله ويشربه ويلبسه الاسياد ويعيشون مثلهم ويعملون نفس الاعمال .

« اخوانكم خولكم فاذا كان احدكم تحت يده أخ فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس » أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذه آراء وجيزة عن استراتيجية الاسلام فى معالجة مشاكل التخلف ولقد نجحت هذه الاستراتيجية فى الماضى نجاحا كاملا مكن الحضارة الاسلامية من الاشعاع على كل العالم قرونا وقرونا .

ولقد كتب الكثير من البحوث عن أسباب انحطاط المسلمين بعد ما كانوا خير أمة أخرجت للناس ، والسبب الحقيقى لتخلف المجتمعات الاسلامية هو كما أسلفنا غلق باب الاجتهاد والتمسك « بارتدوكسية » قضت قضاء مبرما على ديناميكية الثورة الاسلامية فى كل الميادين .

وانا نرى ان الشرط الوحيد للخروج من التخلف هو نفض الغبار عما لصق باذهاننا وعقولنا طيلة قرون كاملة وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه والرجوع الى كتاب الله وسنة نبيه والتسلح قبل كل شىء بكل العلوم علوم الدنيا وعلوم الدين .

ان الثورة الاجتماعية التى ننشدها الآن فى الاوطان الاسلامية لتمكننا من الخروج من التخلف أى من الظلمات الى النور ، لا يمكن ان تتحقق الا بالجهاد الاكبر جهاد النفس .

« **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (35) (صدق الله العظيم)

المصـــــادر :

1 ـ الآية رقم 30 ـ من سورة البقرة .

2 ـ ميردال G. Myrdal - Betnoud the welface state — London, 1960 ص 164 .

3 ـ الآيتان رقم 3 و 4 من سورة قريش .

4 ـ مالك بن نبى ـ المسلم فى عالم الاقتصاد ـ دار الشرق ، ص 48 .

5 ـ أرنولد طونبى ـ الترجمة الفرنسية .
Arnold Toynbee - La civilisation à l'épreuve - Bibliothèque des idées, 1951
الصفحات : 201 الى 229 .

6 ـ Roger Garandy - Le projet espérance - Ed. Robert Laffont, 1976 ص 46 .

7 ـ أرنولد طونبى ـ نفس المصدر .

8 ـ جريدة الفرنسية بتاريخ 13 فيفرى 1981 .

9 ـ مالك بن نبى ـ نفس المصدر ، ص 52 .

10 ـ Hélène Carrère d'Encausse - L'empire éclaté - Ed. Flammarion, 1979

11 ـ نفس المصدر ، ص : 243 ـ 244 .

12 ـ نفس المصدر ، ص 277 .

13 ـ نفس المصدر ، ص 245 .

14 ـ Roger Garandy - Appel aux vivants - Ed. Seuil, 1979 ص 286 .

15 ـ نفس المصدر ، ص : 246 ـ 270 .

16 ـ الميثاق الوطنى ، ص : 25 ـ 26 ـ 27 .

7 _ Roger Grandy - Appel aux vivants

18 ـ الميثاق الوطنى ، ص 29 ٠

19 ـ الآيتان : 8 و 9 من سورة التكوير ٠

20 ـ الآية رقم 127 من سورة النحل ٠

21 ـ الآية رقم 125 من سورة النحل ٠

22 ـ الآية رقم 256 من سورة البقرة ٠

23 ـ الآية رقم 285 من سورة البقرة ٠

24 ـ الآيات : 1 و 2 و 3 و 4 و 5 من سورة العلق ٠

25 ـ احصائية وردت فى جريدة الاهرام المصرية بتاريخ 25 نوفمبر 1969 ٠

26 ـ الآيتان : 1 و 2 من سورة القلم ٠

27 ـ الآية رقم 28 من سورة فاطر ٠

28 ـ الآية رقم 9 من سورة الزمر ٠

29 ـ الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء ـ مجلة العربى ، عدد نوفمبر 1980 ٠

30 ـ الآية رقم 32 من سورة الزخرف ٠

31 ـ الآية رقم 20 من سورة المزمر ٠

32 ـ الآية رقم 34 من سورة التوبة ٠

33 ـ الآية رقم 188 من سورة البقرة ٠

34 ـ انظر الآية رقم 60 من سورة التوبة ٠

35 ـ الآية رقم 11 من سورة الرعد ٠

فلسفــة العمــل فى الاســلام

بقلم : **البخـارى حمـانه**
استاذ عـلم النفس
جامعة وهـران

علاقة الانسان بالعمل عـلاقة قديمة قدم الانسان ذاته وقـدم سعيه المستمر لتلبية حاجاته البيولوجية والنفسية التى عليها يتوقف بقاؤه واستمراره ·

واذا كانت هذه الوضعية قد ربطت الانسان منذ القدم بوسطه الطبيعى ربطا ظل حتى وقت قريب أقرب الى التبعية منه الى التفاعل المتكافىء فان التقـدم العلمى والتقنى الذى حققه الانسان اثناء سيرته الحياتية الطويلة ، والذى تجسد بصورة خاصة فى الثورة الصناعية التى بـدأت أوروبا تشهدها منـــذ القـرن 18 ، قد قلب تلك الوضعية راسا عـلى عقب ومكنه من السيطرة الى حد كبير على ذلك الوسط وتسخيره لخدمــة مطالبه الضرورية وغير الضرورية بجهد ووقت أقــل ·

غير أن هذه الوضعية الجديدة التـى حررت الانسان من عناء العمل وفتحت أمامه آفاقا غير معروفة مـن قبل هـى نفسها التى أفرزت لـه مشاكل نفسيــة واجتماعية لا تقل تعقيدا وخطورة عـن تلك المشاكل السابقة التى توهم أنه قد تحرر منها ومن تبعاتها الى الابد ·

فقد تبين أن « الآلية » و « نظام العمل المسلسل » و « فاعلية التكنولوجيا » اذا كانوا قد حلوا الكثير من المشاكل المادية للعمل وللعمال وحققوا قدرا كبيرا مـن النتائج الايجابية (مثـل زيادة الانتاج كما وكيفا ·· ونقص التعب) فانهـم قد أفرغوا فى نفس الوقت العمل مـن محتواه الانسانى وفتحوا الباب واســعا أمام كل أنواع الاستغلال البشع للعمال ابتداء من « العمل الاســود » وتشغيل

---

(1) نص محاضرة ألقيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة يوم 4 مايو 1981 ·

الاطفال والشيوخ والعجزة ، وارهاق ربات البيوت ، والحجم المرتفع لعدد ساعات العمل الاسبوعية .. وتاخير سن التقاعد .. وغيرها من المشاكل العديدة الاخرى التى أدت الى « اغتراب العمل » وازدياد العامل بالتالى فقرا كلما ازداد عملا ، خاصة فى المجتمعات الرأسمالية ، وتمزيق الاسرة . وارتفاع نسبة الجنوح والتشرد لدى الاطفال وانغماس العمال فى الجنس وفى الجريمة وادمانهم على الخمر والمخدرات كحلول بديلة لهذه الوضعية التى حولت حياتهم الى حياة حيوانية لا مجال فيها الا للاكل والنوم والجنس ..

وكان من الطبيعى أن تؤدى تلك الوضعية الى انعدام فى التوافق بين العمال وبين عملهم ، وعدم رضاهم عن تلك الحالة التى آلوا اليها ، وأن تولد بالتالى مشاكل نفسية واجتماعية لا تتمثل فقط فى تزايد البطالة لدى الشباب وفى الانخفاض المستمر لمستوى معيشة العمال ، بل تتمثل كذلك وبصورة خاصة فى ذلك القلق والتوتر النفسى (2) ، الذى لم يعد يجد العمال متنفسا له الا فى الاضرابات والاضطرابات العاصفة التى تهز اليوم المجتمعات الاوروبية الغربية .. والولايات المتحدة الامريكية .. والتى تعد ايطاليا وبريطانيا أصدق صورة لها اليوم .

ولقد وجدت الشركات السياحية فى هذه الوضعية المؤلمة التى آل اليها العمال فرصة سانحة لاستغلال العمال من جديد عن طريق شركات السياحة التى تبيع لهم « الرحلات الى بلاد الشمس المشرقة .. والهدوء » باسعار خيالية ..

وأمام مثل هذه الحالة بدأ المفكرون الغربيون منذ النصف الثانى من هذا القرن بصورة خاصة يبحثون عن الوسيلة المثلى لاعادة المحتوى الروحى والانسانى للعمل .. وهكذا ظهرت عدة محاولات تهدف كلها الى وضع حد لهذا المفهوم الاعمى الذى أصبح يميز العمل . فظهرت « فلسفة العمل » لأفرون (H. Avron) و « الآلة والانسانية » لفريدمان (G. Freidmann) « والطبيعة الانسانية والعمل » لهزربرغ (Herzberg) و « الصحة العقلية وتنظيم العمل » لـ ماكلين (A. Mc LEAN) الخ .

وفى هذا الصدد يأمل الباحث أن تؤخذ كل تلك المشاكل وغيرها ـ وهى كثيرة ـ بعين الاعتبار من طرف المسؤولين عن التصنيع فى بلادنا بصورة خاصة ،

(2) Alan Mc Lean ; J. MO. Nov. 1974, vol. 16, n° 11.

وفى العالم الثالث الذى يعمل اليوم على اللحاق بالدول المصنعة ، بصورة عامة · حتى يتجنب ما هو واقع فيه الغرب اليوم ـ بقدر الامكان ـ ·

أ ـ فما هو العمل ؟

نلاحظ أن تعريف العمل أمر بالغ الصعوبة نظرا لارتباطه بمجمل النشاط الانسانى ، الجسدى والنفسى ، الفردى والاجتماعى · ومن هنا فان الدراسات الاجتماعية والنفسية للعمل لا تزال دراسات حديثة نسبيا الى الآن ·· ولذلك لا يوجد الى اليوم تعريف للعمل متفق عليه من طرف كل أولئك الباحثين (3) ·

ذلك أنه اذا كان من السهل بالنسبة للفزيائيين تعريف العمل بأنه « نتاج طاقة ما فى زمن ما » (4) فان الامر ليس بمثل هذه السهولة بالنسبة لعلماء النفس وعلماء الاجتماع · ومع ذلك فقد حاول هؤلاء الاخيرين تقديم بعض التعاريف للعمل نورد البعض منها فيما يلى :

1 ـ التعريف الاجتماعى : يرى علماء الاجتماع أن العمل نشاط يرتكز على نحو مباشر حول اكتساب المعيشة (5).

2 ـ التعريف النفسى : أما التعريف النفسى فانه يرى أن « العمل استغلال للطاقة وتصميم لاحداث التغيير » (6) ·

3 ـ التعريف الفلسفى : وأخيرا يذهب الفلاسفة الى أن « العمل مخطط يدعو الى التنفيذ ، وتوقع يدفع الى الانجاز وقصد يسبق الفعل ، وباطن للانسان يتحول الى ظاهر يزداد بواسطته الانسان خصوبة وتعرفا على ذاته » (7) · انه « تلك الرابطة الجوهرية التى تمثل الوحدة المجسدة لكل كائن عن طريق تحقيقها لوحدته الشعورية مع الكل» (8).

هذه التعاريف ، بالرغم من اختلافها المذهبى تلتقى كلها فى نقطة هامة وهى تركيزها على الطابع الواعى والمستمر للعمل تمييزا له عن غيره من النشاطات الاخرى غير الواعية أو العابرة مثل الهيجان (l'agitation) والاعمال الجزئية (les actes) الخ ··

كذلك فان هذه التعاريف حديثة ، حيث أن مفهوم العمل قد تغير تبعا لتغير القيم الحضارية والعلمية السائدة وتبعا لتطور أدواته كذلك حيث لا يعقل أن يكون مفهوم العمل عند اليونان هو نفس

(3) A. Mc Lean : The meaning of work, journal of occupational medecine, Nov. 1974.
(4) Théories et pratiques de l'action (Dict) CEPL, Paris, 1974, p. 269.
(5) A. Salz : Encyclopedia, of Social psychology, 4, v. XI, pp. 425-435.
(6) A. Zilosky : (ed.) Vocationnal behavior, 18, 4.
(7) M. Blondel : L'Action, vol. I, Puf, 1950, p. 51.
(8) H. Avron : La Philosophie du Travail, pp. 51-52, Puf, 1973.

المفهوم عند الاوروبيين اليوم ، أو تصوره في عصر الادوات الحجرية ٠٠ هو نفس التصور في عصر الطاقة بمختلف أنواعها.

وللتدليل على ذلك نعرض فيما يلي لموقف بعض الفلسفات والديانات القديمة من العمل ٠٠ ذلك الموقف الذى كان في معظمه ، وكما سنرى ، معاديا للعمل خاصة بمفهومه المادى والجسدى ٠

ويعتقد الباحث أن تحقير القدماء بصورة عامة للعمل الجسدى والمادى سببه الاساسى نظرتهم الخاطئة للحقائق الوجودية الثلاثة ممثلة في : الله والانسان والارض وفي العلاقة القائمة بينهما ٠

فاليونانيون مثلا رأوا أن الكون (le cosmos) هو الحقيقة الثابتة وان اشرف شيء فيه هو الفكرة (l'idée) أو (logos) التى تعكس كمال ذلك الكون والتى من أهم خصائصها الثبات ومن ثم قال كل فلاسفتهم ، باستثناء هراقليدس (Héraclites) ، بأن الحقيقة في الثابت وليست في المتغير الذى هو على حد تعبير أفلاطون (Platon) «مصدر للنقص والاضطراب» (9) ٠ وهكذا فان الارض نتيجة لتغيرها حقيقة وجودية ناقصة تماما كما أن العمل الذى هو مصدر ذلك التغير ناقص بالتالى ٠٠ ولا يليق الا بالعبيد ٠٠

وبالنسبة لله فان فيلسوفا مثل أرسطو (Aristote) الذى عرف المسلمون مؤلفاته أكثر من غيره من فلاسفة اليونان الآخرين ، يرى أن الله ، باعتباره عقلا محضا لاشغل له سوى التفكير في ذاته ولا صلة له بالتالى بالعالم أو بما يجرى فيه من أحداث (10) ٠

وأمام لامبالاة هذا « الاله » اليونانى بالارض وبمن فوقها اضطر اليونان الى الاستعاضة عن ذلك الاله بآلهة وسيطة تشبه في صفاتها البشر ومهمتها متابعة ما يجرى فوق الارض من أحداث ٠٠٠ والتدخل في تلك الاحداث اذا لزم الامر ٠٠٠ مثل الاله زوس (Zeus) وأبولون (Apollon) ، ومارس (Mars) وفينوس (Vénus) ٠٠٠ وغيرهم ٠٠٠ وهى نفس الآلهة الوسيطة التى نجدها عند غيرهم من الشعوب الاخرى ٠٠٠ كالمصريين (رع) والهنود (سيفا Civa) والعرب الجاهلية (اللات ، ومناة ، والعزى ، وهبل ، وود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ٠٠٠ الخ) (11) ٠

وقد ترتب عن هذا المفهوم اليونانى لله وللكون مفهوم آخر لا يقل خطأ

(9) E. Béchier : Histoire de la Philosophie. T. I, p. 159, Puf, 1948.
(10) Platon : Phédon, libr. Hatier, Paris, 1957, p. 17.
(11) E. Béchier : Histoire de la Philosophie, vol. 2, p. 462.

وخطورة الا وهو مفهومهم للانسان حيث رأى معظم فلاسفة اليونان أن الانسان جوهر لا مادة وفكر لا جسد ، وروح لا بدن ، ومن ثم قال أفلاطون أن البدن يمثل سجنا بالنسبة للروح ، نزلت فيه نتيجة لخطا ارتكبته فى ماضى بعيد ، وعليها بالتالى العمل على التخلص منه للعودة الى عالم مثلها الاول الذى يمثل وحده الحقيقة ... والكمال ... وكذلك قال أفلوطين (Plotin) وغيره من الفلاسفة القدماء .

من هنا ذهب أولئك الفلاسفة الى أن افضل عمل للانسان يتمثل فى التأمل والحكمة (Sapiens) وليس فى العمل المادى الذى لا يسهم فى الوصول بالانسان الى ذلك العالم المثالى الذى ينشده . ومن هنا أيضا حقروا من العمل الجسدى والمادى وجعلوه من نصيب العبيد ... فافلاطون يرى ان اشتغال الانسان بأى مهنة (يدوية) كانت ، يصرفه عن واجباته الحقيقية المتمثلة فى التأمل والنظر (12) ، وأرسطو يؤكد بدوره فى كتابه « السياسة » « ان العمل (اليدوى) شىء مخزى ولا يمكن أن يكون بالتالى الا من نصيب العبيد ... الذين يجدون فيه المبرر الوحيد لوجودهم ... لان الناس لا يمكن ان يكونوا فى يوم من الايام أحرارا الا اذا أصبح نبات «المكوك» (les navettes) ينبت ويتحرك من تلقاء نفسه » (13) . كما يزعم .

• ونفس الموقف من العمل ومن العمال نجده قبل ذلك وبأشكال متفاوتة ومختلفة عند قدماء الاشوريين ، والعراقيين ، والهنود والصينيين ، والفرس (14) ، كما نجده بعد ذلك عند الرومان.. ابتداء من شيسرون (Ciceron) الذى ذهب الى « أنه لا يمكن لاى شىء نبيل أن يخرج من دكان أو من ورشة » (15) الى سنيكا (Sénèque) الذى راى بأن « تشريف صانع الاحذية هو محاولة ايهامه بانه فيلسوف ، ولكن الفلسفة مهمتها ليست تعليم الناس استعمال أيديهم بل تكوين أرواحهم» (16)

وغنى عن البيان أننا لن نتوقف عند هذا المفهوم الغريب للفلسفة ولدورها فى الحياة ... ولكننا سنكتفى بالملاحظة فقط بانه لولا العمل اليدوى الذى قدمه أولئك العبيد لما وجد فلاسفة اليونان وغيرهم وقتا للتفلسف ولقضوا مثل

---

(12) H. Avron : La Philosophie du Travail. pp. 9 - 10.
(13) L. Millet : Aristote, Bordas 1967, pp. 102 - 103.
(14) J. Heers : Le Travail du Moyen-Age. Que sais-je ? Puf, 1968, p 106.
(15) H. Avron : La Philosophie du Travail. pp. 9 - 10
(16) H. Avron : La Philosophie du Travail. pp. 9 - 10

الكثيرين ممن سبقوهم وتلوهم حياتهم بأكملها فى الجرى وراء لقمة العيش ٠

وبالنسبة للمسيحية فاننا نلاحظ أنها بالرغم من نظرتها الجديد المؤيدة للعمل الجسدى أو الانسانى ، (Ars Humana) باعتباره مكملا للعمل الالاهى (Ars Divina) وهى النظرة الناتجة عن موقفها الجديد من تلك الحقائق الوجودية الثلاثة التى سبقت الاشارة اليها ٠ (الله الانسان الكون) ، فان مفهومها للعمل ظل بالرغم من ذلك مفهوما تشوبه بعض النقائص والاخطاء وآية ذلك أنه نتيجة للمفهوم المسيحى للانسان بصورة خاصة ومبـدا الخطيئة الاصلية (le péché originel) الذى تبناه كل المسيحيين على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم ، فان الوجود الانسانى بأكمله قد تحول على أيديهم الى عملية افتداء (17) (Rachat) لتلك الخطيئة ٠٠٠ وذلك عن طريق الابتعاد شبه الكلى عن الجسد وملذات البدن ، مثل الزواج (18) والتمتع بخيرات الارض لتحقيق خلاص الروح من «أدران» الجسد ولذلك تحول المفهوم المسيحى للخطيئة الاصلية الى مبرر لمعارضتها للتقدم الاجتماعى (19) ٠٠٠ وكان مفهومها للعمل مفهوما عقابيا (20) ٠٠٠ غلب عليه الجانب النظرى والتأملى ٠٠٠ وحتى البروتستانتية التى مجدت العمل الجسدى المستمر « لانه يزيد من محبة الله » ، لم تضع للعمل قوانين كفيلة بحمايته وبذلك أسهمت بالتالى وبطريقة غير مباشرة فى تدعيم أسس الرأسمالية ٠

فهذا توماس الاكوينى (St Thomas d'Aquin) يفرق بين الاعمال اليدوية « المنحطة » ، والخاصة بالعبيد ، وبين الاعمال الحرة (أو النظر) الخاصة بالسادة ٠ وهذا باسكال (B. Pascal) يذهب فى تحقيره للعمل الجسدى الى حد مهاجمة النشاط المرح (Le divertissemen) وكل نشاط جسدى آخر لانه يرى فيه ظاهرة مدنسة ومخدرة للانسان ووهم يصرفه عن حقيقة الموجود (21) ٠

ولقد استمر هذا الموقف من العمل لدى بعض المفكرين المسيحيين المحدثين والمعاصرين من أمثال (برنانو (Bernanos) (وباندا (J. Banda)) وغيرهم الذين استمروا فى معارضة العمل الجسدى تحت ستار محاربة الآلية ٠

---

(17) Ibid.

(18) هذا الموقف المعادى للزواج نجده كذلك عند قبائل (الانكا) فى البيرو وفى تاهيتى والتبت والهند واليابان ٠٠ الخ ٠

(19) C. Moix : La pensée d'E. Mounier, Paris, Seuil, 1960, p. 263.

(20) H. Avron : La Philosophie du Travail, p. 11.

(21) B. Pascal : Pensées. p. 71, Bordas, Paris, 1972.

وكان طبيعيا أن يؤدى مثل هـذا الموقف من العمل الى رد فعل عنيف من طرف الكثيرين من المفكرين الذين رفضوا ذلك المفهوم المزرى للعمل ونادوا بضرورة اعادة الاعتبار للعمل المادى والتفاعل المباشر مع العالم المادى المحيط بالانسان كوسيلة وحيدة لتطور الانسان وازدهاره (La Praxis).

ولعل من أبرز المفكرين الذين مثلوا هذا الاتجاه (ميلتون (Milton)) الذى ذهب فى تمجيده للعمل المادى الى حد المطالبة بنزع كل محتوى روحى عن العمل ، وحصره فى الجانب المادى البحث ؛ ثم تلاه (آدام سميث (A. Smith)) الذى نشر سنة 1779 كتابه المشهور « بحث فى طبيعة وأسباب ثراء الامم » وهو الكتاب الذى أكد فيه أن الثروة الحقيقة لاى أمة لا تتمثل فقط فى مقدار ما تملكه من ذهب بل فى مقدار ما تبذله من عمل كذلك ؛ ثم تلاه (كانت (E. Kant) ومفهومه الاخلاقى للعمل القائم على الآمر المطلق "L'impératif catégorique" ، ثم (فيخته (J. G. Fichte)) ومفهومه للعمل النابع من الذات الواعية بنفسها والعاملة على النفاذ الى حقيقة الاشياء التى حولها، ثم (هيغل (Hegel) ـ وجدليته العقلية الشمولية التى حاول من خلالها وعلى حد تعبيره ، وضع حد لتلك الهوة التى اغرقت فيها فلسفة (كانت ... وفيخته) العمل وأبقته بالتالى مفهوما مجردا لا صلة له بالواقع » (22) ثم (ماركس (K. Marx)) وجدليته المادية التى حاول بدوره ، ومن خلال أطروحاته الخاصة «باغتراب العمل» (l'aliénation du travail) وبضرورة سيطرة البروليتاريا على وسائل الانتاج ، والغاء الملكية الفردية ، اخراج العمل من المجال النظرى الذى اغرقه هيغل فيه ، ثم (دوركايم (E. Durkheim) ونظريته الاجتماعية ومفهومه لتقسيم العمل ، وأخيرا (تايلور (F. W. Taylor) ومفهومه الآلى للعمل ذلك المفهوم الذى لم يلبث ان امتد منذ العشرينات من هذا القرن من الولايات المتحدة الامريكية ليشمل أوروبا واليابان ، وليفرز فى النهاية تلك المشاكل الانسانية التى تتخبط فيها المجتمعات الغربية المصنعة اليوم والتى سبقت الاشارة الى البعض منها فى بداية هذا البحث .

ب ـ موقف الاسلام من العمل :

لقد جاء الاسلام رافعا لشعار التغيير الجذرى لمختلف أوجه الحياة الانسانية، الدينية والدنيوية ، الروحية والمادية ، الفردية والاجتماعية ، « **كتاب انزلناه**

(22) H. Marcuse : Reason and Revolution, chapt. III, Blacon Press, 1960.

اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » (23) ·

وهذا التغيير الذى جاء الاسلام مطالبا به كل فرد انسانى تغيير بماضى من أجل المستقبل الذى يرى ، عكس كل تلك الفلسفات والديانات والنحل ، انه افضل من ذلك الماضى والحاضر معا ·

وتترتب عن هذا المبدا عدة نتائج لعل اهمها :

1 ـ أن مستقبل الانسان فى الاسلام ليس وراءه كما ذهبت تلك الفلسفات والديانات والنحل بل امامه ··· وفى هذا الصدد نذكر أن تلك الفلسفات والديانات قد نظرت الى التاريخ نظرة تشاؤمية ··· ابتداء من أفلاطون وعصوره الذهبية والفضية والبرونزية الى (هزيود (Hésiode) وأوفيد) (Ovide) الى الهنود وعصر (سيفا) (Civa) الذهبى ··· الى الصينيين وعصر (Kouang-Tsé) الى غيرهم من الشعوب الذين ذهبوا كلهم الى نفس ما ذهب اليه أفلاطون ·

وبالنسبة للاسلام فانه لا يعقل أن يطالب الانسان بضرورة التغيير نحو الافضل ويتبنى فى نفس الوقت تلك النظرة الرجعية والتشاؤمية لمسيرة الانسانية ·

2 ـ ان هذا التغيير الذى يطالب الاسلام به يجب أن يكون متكاملا بحيث يشمل الدين والدنيا ، الروح والجسد ، الفرد والجماعة ··· « **وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » (24) ، ومن ثم فانه لا يمكن أن يتحقق الا بالانسان ككل روحا وجسدا، قلبا وعقلا ، فكرا وبدنا ··· لانه لا يعقل كذلك أن يطالب الاسلام بضرورة تحقيق التكاملية المادية والروحية فى ذلك التغيير وأن يلفظ أو يحقر فى نفس الوقت من احدى ادواته الاساسية الممثلة فى الجسد أو أن يحصره فى الجانب الروحى والنظرى المحض كما فعلت تلك الفلسفات والديانات والنحل السابقة ·

ونتيجة لهذا المفهوم للتغيير ولادواته وللنظرة الاسلامية التفاؤلية والواقعية لمسيرة الانسانية كان من الطبيعى أن تختلف نظرة الاسلام لتلك الحقائق الوجودية الثلاثة (الله ـ الانسان ـ الكون) عن نظرة تلك الفلسفات والديانات ·

فالله فى الاسلام ليس ذلك الموجود الغارق فى تأمل ذاته والذى لا شأن له

(23) ابراهيم ، 1 ·
(24) القصص ، 77 ·

بالعالم أو بالانسان كما ذهب ارسطو بل ان من أهم خصائصه الخلق باليد بالذات والابداع « **أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاما فهم لها مالكون** » (25) ، وهو المبدع « **بديع السموات والارض** » (26) ، والصانع « **صنع الله الذى اتقن كل شىء** » (27) • وهو لم يخلق الكون عبثا « **وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين** » (28) ، بل انه يدبرها « **يدبر الامر** » (29) ، ويحميها من الدمار والهلاك « **ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا** » (30) • فهو محيى الارض « **وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه ياكلون** (31) • وهو عالم بكل شىء يجرى فى الكون مهما صغر أو كبر « **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر** » (32 • وهو منهى وجوده « **يوم تبدل الارض غير الارض والسموات** » (33) • فالارض احدى آيات قدرته ووجوده « **ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب** » (34) •

والانسان فى الاسلام ليس كائنا مهملا من طرف الله لا تربطه بخالقه آية صلة مثل الانسان الارسطى أو الماركسى أو الوجودى ، تماما كما أنه ليس فى تناقض مبدئى مع الارض ••• لانه نتيجة لتكوينه المزدوج الذى يجعل منه كائنا وسطا بين البهيمة والملك على حد تعبير الامام الغزالى ، يرتبط ارتباطا طبيعيا وديناميكيا بالله وبالارض معا وفى نفس الوقت ••• ولا يعرف تلك الهوة المفتعلة بينه وبين الارض أو بينه وبين الله • لانه فيه نفحة من روح الله وجزءا من الارض فى نفس الوقت « **اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا**

---

(25) يس ، 71 •
(26) البقرة ، 117 •
(27) النمل ، 88 •
(28) الدخان ، 38 •
(29) الرعد ، 2 •
(30) فاطر ، 41 •
(31) يس ، 33 •
(32) يونس ، 90 •
(33) ابراهيم ، 48 •
(34) آل عمران ، 190 •

من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (35) .

وهكذا فان الانسان بفضل تلك الازدواجية الروحية والمادية يرتبط بالله وبالارض ارتباطا طبيعيا . فبفضل العنصر الالالهى الكامن فيه فان صلته بالله صلة وثيقة الى حد تجعل الله أقرب اليه من حبل وريده « **ونحن اقرب اليه من حبل الوريد » (36) . « واذا سالك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعان** » (37) . وبفضل ذلك العنصر الترابى المكون له فان علاقته بالارض علاقة طبيعية كذلك وفى نفس الوقت .

فالارض أصله « **والله انبتكم من الارض نباتا** » (38) ، وهى مجال رزقه «**هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها** » (39) . وهى مجال سعادته الدنيوية والاخروية « **انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا** » (40) وهى منتهاه « **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** » (*) . ومن ثم فان الارض ليست سجنا أو عقابا له ... بل هى مجال خلافته لله « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة** » (41) ... ونقطة الالتقاء بينهما ... كما انها مجال اختبار مدى أهليته لتلك الامانة التى قبل عن طواعية تحملها بعد ان أبت السموات والارض حملها ... خشية منها ومن تبعاتها « **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا** »(42). « **ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون** » (43) . ولذلك طالب القرآن لا بعدم مقاطعة الارض فحسب بل بتعميرها بالعمل الصالح وتوعد كل مفسد فيها بأشد العواقب « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا او**

(35) ص : 71 ــ 72 .
(36) ق ، 16 .
(37) البقرة ، 186 .
(38) نوح ، 17 .
(39) الملك ، 15 .
(40) الكهف : 7 .
(*) طه : 55 .
(41) البقرة ، 30 .
(42) الملك ، 2 .
(43) يونس ، 14 .

يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف » (44) ·

بمثل هذا المفهوم لله وللانسان وللارض وللعلاقات القائمة بينهما تتحول علاقة الانسان بالله وبالارض الى علاقة طبيعية يتمكن بواسطتها من تحمل مسؤوليته الدنيوية والدينية ومن تحقيق سعادته وتحديد مصيره في هذه الدنيا وفى الآخرة عن وعى وارادة ··· دونما خطيئة مسبقة ··· أو مصير محتوم سلفا « **ولا تزر وازرة وزر اخرى** »(45).

لذلك يلح الاسلام عكس كل تلك الفلسفات والديانات ، على ضرورة الاهتمام بالبدن وبالدنيا ، دونما افراط أو تفريط ، لتمكينه من الوفاء بتلك الواجبات التى على أساسها سيحاسب يوم القيامة ·

ولقد تجلى اهتمام الاسلام بالبدن فى ربطه للايمان بالله ورسوله بالايمان بالبعث الجسدى والروحى للانسان يوم القيامة ·· وهى الحقيقة التى أنكرها الفلاسفة اليونانيون خاصة ، وبعض الفلاسفة المسلمين المتأثرين بهم من أمثال الفارابى وابن سينا..الذين أنكروا بدورهم بعث الاجساد يوم القيامة · وكذلك قال بعض المعتزلة (46)· فالبعث فى الاسلام بعث للروح وللجسد معا بالتالى « **يوم ينفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون** » (47) · والحساب والعقاب يوم القيامة قائمان على أساس الجسد بل على كل جزء من أجزاء الجسد « **اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** » (48) « **ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا** » (49) · « **يوم تبْيَضُّ وجوه وتَسْوَدُّ وجوه** » (50) · « **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها** » (51) · «**فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة** » (52) ·

---

(44) المائدة ، 33 ·
(45) الانعام ، 164 ·
(46) البغدادى : الفرق بين الفرق ، مكتبة صبيح ، القاهرة ، ص 136 ·
(47) يس ، 51 ·
(48) يس ، 65 ·
(49) الاسراء ، 36 ·
(50) آل عمران ، 106 ·
(51) النساء ، 56 ·
(52) البقرة ، 24 ·

ج ـ مكانة العمل فى الاسلام :

ونتيجة لذلك المفهوم للانسان ولدوره الدنيوى والاخروى فان العمل قد حظى فى الاسلام بمكانة قل أن تعادلها أية مكانة أخرى فى أى فلسفة أو ديانة حتى تلك الفلسفات التى قامت باسم العمال ومن أجلهم ·

وللتدليل على عظمة هذه المكانة التى حظى بها العمل فى الاسلام نشير الى أن الاسلام قد انطلق فى ثورته الكبرى ، التى غيرت فى فترة لا تزيد عن ربع القرن الملامح الروحية والمادية والسياسية للعالم باكمله بالعمال الذين كانوا فى مقدمة طلائعه الاولى (53) ، وان القرآن قد خصص حوالى 360 آية للحديث عن العمل و 106 آية للصنعة أو الفعل والتى تتضمن كلها اشارات واضحة الى مختلف الحرف والصناعات ابتداء من صناعة النسيج والبناء الى النجارة والزراعة والتجارة الخ ··

ولا غرابة فى ذلك فالعمل فى الاسلام يمثل المحور الاساسى الذى تدور عليه حياة الانسان وسعادته الدنيوية والاخروية ·

فالهدف من خلق الانسان هو اختبار مدى صلاحيته للعمل الصالح « **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا** » (54) « **انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** » (55) والتفاضل بين الناس فى الدنيا والآخرة أساسه العمل « **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار** » (56) ، **وما يستوى الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء** » (57) · والسعادة الاخروية قائمة على أساس العمل «**والعاقبة للمتقين** » والعمل أساس العزة « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** » (59) وهو أساس رحمة الله « **ان رحمة الله قريب من المحسنين** » (60)

(53) كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة تاجرا وخباب بن الارث (ض) حداد وعبد الله بن مسعود (ض) راعيا ، وسعد بن أبى وقاص (ض) صانع نبال وبلال خادما ، وأبو بكر (ض) تاجرا وخديجة (ض) تاجرة ··

(54) الملك ، 2 ·

(55) الكهف ، 7 ·

(56) ص ، 28 ·

(57) غافر ، 58 ·

(58) القصص ، 83 ·

(59) المنافقون ، 8 ·

(60) الاعراف ، 56 ·

والحياة بدون عمل موت وعدم « **ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا** » (61) والموت مع العمل حياة « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله اموات بل احياء عند ربهم يرزقون** » (62) . والجنة قائمة على العمل « **أم حسبتموا أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** » (63) . وكذلك النار . « **وان الفجار لفى جحيم** » (64) .

لذلك أعلن الاسلام قبل أى عقيدة أو مذهب سياسى آخر أن العمل شرف وليس وصمة ، **ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا** » (65) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « **ما كسب رجل كسبا اطيب من عمل يده** » .

والعمل حق وليس منحة . « **هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور** » (66) . وفى هذا الصدد يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل يطلب اليه ان ينظر فى أمره لانه خال من وسائل الكسب ، ولا شيء عنده يستعين به على القوت .. فما كان من الرسول الا ان دعا بقدوم وبيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ثم دفعها للرجل .. ليعمل لكسب معيشته . ومعنى هذا ان الدولة فى الاسلام مسؤولة عن البطالة تماما كما أنها مطالبة بتوفير أدوات الانتاج بالنسبة للعامل الذى لا يملك مثل تلك الادوات . حتى يكسب عيشه .

والعمل نعمة « **لياكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون** » (67) . ويقول الرسول (ص) فى هذا الصدد : « لكل عمل باب من أبواب الجنة يدعون اصحابه بذلك العمل يوم القيامة » (حديث) .

والعمل عبادة « **يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا** » (68) ويقول الرسول (ص) « الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » كما يقول : « من أمسى كالا (متعبا) من عمل يده أمسى مغفورا له » (حديث) .

---

(61) النبأ ، 40 .
(62) آل عمران ، 169 .
(63) آل عمران ، 142 .
(64) الانفطار ، 14 .
(65) فصلت ، 33 .
(66) الملك ، 15 .
(67) يس ، 35 .
(68) الانشقاق ، 6 .

لذلك يحارب الاسلام التواكل الذى هو استسلام وخنوع للواقع دون سعى لتغييره ، عكس التوكل الذى يعد أمـرا محببا الى اللـه « **وعلى اللـه فليتوكل المؤمنون** » (69) لانه يمثل تواضعا من العبد أمام الله وأمام الناس بعد تأدينه لعمله • ولعل فى رد الرسول صلى الله عليه وسلم على الاعرابى الذى تـرك ناقته دون رباط بحجة توكله على الله فى عدم ضياعها ، ابرز مثال على الفرق بـين التواكل والتوكل • وذلك ما أكده كذلك عمـر بـن الخطاب (ض) حـين قـال : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقـد علمتـم ان السماء لا تمطر ذهبا أو فضة » •

ونفس الحقيقة تصدق عـلى التمنى والرجاء •

فلا تواكل فى الاسلام ولا تمنى بل عمل مستمر بما يتفق والموقف الحاضر دونما حسرة على ما فات أو انشغال بما هو آت تأكيدا لقوله تعالى : « **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** » (70) لان الوقت فى الاسلام كما يقول الصوفية كالسيف ان لم يقطعه المرء قطعه •• ومن ثم فهو ليس النقود فحسب كما يقـول المثل الانجليزى الشائع بـل انه الحياة ذاتها (71) •

هذا الموقف الاسلامى من العمل هو الذى مكن الاسلام من الانتصار والانتشار وحال دون فتوحاته الكبرى من أن تتحول الى استعمار لتلك الشعوب التى اعتنقت الاسلام ، أو الى تسلط واستغلال لخدمة أهداف توسعية واستغلالية لهذه المجموعة أو تلك •• بل بقيت كما كانت فتوحات ورسالة نور وهدى •• لا فرق فيها بين عربى وأعجمى الا بالعمل والتقوى ••

ولم يتدهور العالم الاسلامى بعـد ذلك ويقـع فيما وقـع فيه مـن تخلف واستعمار وانحطاط الا حين ابتعد عن هذا المفهوم الاسلامى للعمل ، نتيجـة لتغلغل التيارات الثقافية الاجنبية ، تلك التيارات التى حملت اليه من جملة مـا حملت مواقف تلك الفلسفات والمذاهب والديانات القديمة المحقرة للعمل • وآلت به بالتالى الى تلك الوضعية المزرية التى آل اليها ••• والتى يعمل اليوم جاهدا على التخلص من آثارها •

د ـ تعريف العمل :

استنادا الى ما تقدم يمكن أن نعرف العمل فى الاسلام « بأنه كل جهد جسدى

(69) التوبة ، 51 •
(70) الحديد : 23 •
(71) السلمى : طبقات الصوفية مكتبة الخانجى ، القاهرة ، 1969 ، ص

أو روحى شريف ومنتج يقوم به الانسان لكسب العيش أو لاداء واجباته نحو ذاته أو نحو مجتمعه أو نحو ربه » .

هذا المفهوم للعمل فى الاسلام يجعل منه احدى القيم الاساسية التى لا تنفصل أهدافها عن وسائلها وأخلاقيتها عن منفعيتها ومثاليتها عن واقعيتها ، كما ميزه فى نفس الوقت عن كل أنواع النشاط الغريزى وغير الواعى .. الذى يظل مهما بلغت دقته (نسيج العنكبوت .. خلية النحل ، عش الطير .. الخ) عملا تحكمه الغريزة لا العقل .. بخلاف الحال عند الانسان الذى يستطيع عكس أرقى أى حيوان تصور العمل كمشروع فى ذهنه قبل البدء فى تنفيذه فعلا .. كما يلاحظ الباحثون .

وبالرغم من اتفاق الباحثين من أن العمل فى الاسلام هو المخالف للنظر فان ذلك لا يعنى انفصالا بينهما بأى حال من الاحوال .. كما يؤكد ذلك ربط القرآن فى أكثر من آية للايمان بالعمل .. « **الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** » (72) ، ورد النبى صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن رجل يصلى النهار ويقوم الليل ويكثر من ذكر الله ، فقال : أيكم يكفيه طعامه فقالوا كلنا يا رسول الله ، فقال (ص) « كلكم أعبد منه » (73) . وهذه المساواة للعمل بالعبادة من طرف الاسلام نجدها بعد ما يقرب من ثلاثة عشرة قرنا ، لدى الفلاسفة الاوروبيين من أمثال « هيغل » الذى يقرن بدوره بين «العبادة والعمل» (Ora et Labora) ولدى « بلوندل (M. Blondel) » الذى يرى فى العمل « وسيلة تمكن الفرد من تعدى حدود فرديته ومن المشاركة عن طريق ارادته المحدودة فى المجهود الالاهى اللا محدود » (74) .

ولقد أثار هذا المفهوم الاسلامى للعمل باعتباره الجانب التطبيقى والضرورى للايمان ، عدة قضايا ومشاكل دينية وسياسية بدأت ملامحها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، اثناء اجتماع سقيفة بنى ساعدة ، ثم اثناء حرب الردة فى عهد خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، واثناء مقتل عثمان رضى الله عنه ، لتأخذ كل أبعادها بعد ذلك فى

---

(72) التين ، 6 .

(73) حديث متفق عليه مثل كل الاحاديث الواردة فى هذا البحث .

(74) J. Lacroix : M. Blondel. Puf, 1963, p.

(75) الشهرستانى : الملل والنحل ، ج 1 ، ص 35 ـ 42 ، مكتبة صبيح ، القاهرة 1964 .

معركة صفين (40 هـ) بين على رضى الله عنه ومعاوية ٠

فلقد كانت هذه المعركة ، بما أثارته من مشاكل دينية وسياسية حادة لم يعرف الاسلام لها مثيلا من قبل ، وبما ولدته من انقسامات (الخوارج ، المرجئة ، الشيعة) لا تزال أثاراها ماثلة فى العالم الاسلامى الى اليوم ، بحق نقطة تحول كبرى فى التاريخ الدينى والسياسى للاسلام ٠

ولعل من أبرز وأول القضايا الدينية التى تولدت عن تلك المعركة ، هى قضية مرتكب الكبيرة وايمانه أم كفره ٠٠ وقضية الحرية الالاهية وعلاقتها بالحرية الانسانية تلك القضية التى أسهم فى أثارتها وفى تعقيدها كذلك اتصال الفكر الاسلامى بثقافات البلدان المفتوحة والمجاورة ٠ (الفرس ، الروم ، الهند ، مصر ٠٠ الخ) ٠ وهكذا كان معبد الجهنى (80 هـ) وغيلاف الدمشقى (110 هـ) ويونس الانصارى أول من تكلموا فى القضاء والقدر وأكدوا حرية الانسان المطلقة فى كل ما يأتيه من أفعال ٠٠٠ وهو الموقف الذى لم يلبث أن أدى الى ظهور رد فعل عنيف تمثل فى الحرية الجبرية التى نفت على لسان أبرز ممثليها ، الجهم ابن صفوان (128 هـ) ، تلك الحرية الانسانية وأكدت مبدا جبر الانسان فى كل ما يأتيه من أفعال ٠

وبين تلك المواقف المؤيدة لحرية الانسان والنافية لها يتشعب هذا الموضوع ليشمل موضوعا أوسع وأخطر الا وهو موضوع الصفات الذى أدى على يد المعتزلة الى أخطر محنة فكرية عرفها الاسلام ٠٠٠ تلك المحنة التى انتهت بظهور اتجاهات جديدة تمثلت بصورة خاصة فى الحركة الاشعرية وأهل السنة الذين حاولوا كلهم ، خاصة الاشاعرة من خلال نظريتهم فى « الكسب » التوفيق بين تلك الاتجاهات المتصارعة والمتضاربة

وتخمد المحنة ٠٠ وسيطر التيار الجبرى على معظم العالم الاسلامى الذى لم يلبث أن سقط فى هوة التخلف والاستعمار ٠ والتى لم يخرج منها الا بفضل زعماء الاصلاح الاسلامى الذين بدأوا منذ القرن التاسع عشر ، استنادا الى النظرية الاشعرية ، يهزون العالم الاسلامى هزا من سباته وتواكله وخضوعه ابتداء من جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا الى عبد الحميد ابن باديس ومحمد اقبال ليدفعوه الى نهضته الجديدة التى استطاع بفضلها ان يتخلص ـ بعد كفاح مرير ـ من الاستعمار الاجنبى وأن يبدأ مسيرته من جديد ٠

وأخيرا فان هذا المفهوم للعمل قد أثار مشكلة ثالثة الا وهى مشكلة تقييم العمل ومصدره أهو الله أم الانسان ؟ ودون الدخول فى التفاصيل الخاصة بهذا الموضوع نشير الى أن هذه المشكلة قد أدت بدورها الى ظهور ثلاثة مواقف متباينة : الموقف الظاهرى والحشوى الذى يرى أن الله وحده هو مصدر تقييم حسن وقبح الافعال ، والاتجاه الاعتزالى والفلسفى الذى يرى أنه العقل الانسانى والاتجاه النسبى والاشعرى الذى وقف موقفا وسطا كذلك حين قال بان الله هو مصدر تقرير الحسن والقبح بالنسبة للواجبات ، والعقل الانسانى بالنسبة للمعارف .

هـ ـ وسائل العمل :

ان العمل فى الاسلام باعتباره محور الحياة الانسانية ، كما سبق ، لا يمكن أن ينفصل بالتالى فى أسسه وأهدافه عن تلك الحياة ، التى تتطلب الروح الى جانب البدن والدنيا الى جانب الدين .. والفرد الى جانب المجتمع .

ومن هنا كانت وسائل العمل فى الاسلام هى ذاتها الاسس التى تحكم حياة الفرد المسلم وما فيها من عبادات ومعاملات ومن علم وعمل ..

ودون التوسع فى الحديث عن موقف الاسلام المعروف من العلم نكتفى بالاشارة فقط فى هذا الصدد الى أن الايمان ذاته لا يمكن أن يكون كاملا فى نظر الاسلام الا اذا كان قائما على العلم ، تماما كما أن العمل لا يمكن أن يتحقق بالفاعلية المطلوبة فى غياب العلم . ولذلك ربط الاسلام دوما الايمان بالعمل والايمان والعمل بالعلم .. حيث أنه اذا كان صحيحا أنه لا ايمان أفضل ولا عمل أنجع من الايمان والعمل القائمين على العلم ، فانه لا علم أفضل كذلك وأنفع من العلم القائم على التقوى والعمل ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم « تعلموا ، تعلموا فاذا علمتم فاعملوا » وقال أيضا : « لا تكن بالعلم عالما حتى تكون به عاملا » .

وفى ربط الاسلام للعلم بالعمل رفض قاطع للمفهوم اليونانى للعلم باعتباره تأملا مجردا لا تربطه بالواقع أية صلة ، ودعوة بالتالى الى ربط العلم بالعمل ، والنظر بالتطبيق ، والى الابتعاد عن كل الشعارات الفارغة وكل أنواع المزايدات والنفاق الذى يجعل صاحبه يقول ويدعو الى ما لا يفعل هو ذاته .. وهو أكره ما يكره الاسلام « **يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا**

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (76)
كذلك فان فى ربط الاسلام للعلم والعمل بالايمان ضمان لأخلاقية العلم ولفاعلية العمل ، حيث أن العلم فى الاسلام لا يعنى حتما الفضيلة كما ذهب سقراط (Socrate) بل ان العلم سلاح ذى حدين يمكن أن يوجهه الانسان للتطوير والتعمير تماما كما يمكن أن يوجهه ، فى غياب الوازع الدينى والخلقى ، الى التخريب والتدمير، كما هو الحال اليوم .

و ـ أهداف العمل :

على ضوء ما تقدم يمكن أن نلخص أهداف العمل فى الاسلام فى نقطة رئيسية واحدة الا وهى : تحقيق غائية الانسان التى من أجلها خلق ، واستحق خلافة الله فى الارض ·· والمتمثلة فى تلك الامانة التى قبل عن طواعية تحملها والتى ليست شيئا آخر فى نظر علماء الاسلام من أمثال الامام ابن كثير،والحسن البصرى ، والامام محمد جمال الدين القاسمى ، وصاحب الجواهر ، سوى الرعاية لحقوق الله ، وما تفرضه تلك الرعاية من واجبات دينية ودنيوية ، فردية وجماعية · « **انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا »** (77) ·

واستنادا الى هذا المفهوم لاهداف العمل فى الاسلام تتحدد بالتالى قيمة العمل ومراتبه ومعاييره ·

فالاسلام لا يفرق بين عمل وآخر استنادا الى مفاهيم طبقية أو عنصرية بل أن أساس التفاضل الوحيد بين الاعمال عنده هو مدى اسهامها فى تقريب صاحبها من ذلك الهدف ، ومدى تحقيقها الفعلى له ، ولذلك وقف الاسلام ذلك الموقف الاصيل والمشرف من العمل اليدوى ولم يجعله ، مثلما فعلت الفلسفات والديانات الاخرى ، أدنى مرتبة من العمل الفكرى ·· ولذلك أيضا قال الرسول صلى الله عليه وسلم « انا قوم نعمل بأيدينا » ·

وفى هذا الموقف من العمل تأكيد للمبدا الاسلامى فى المساواة بين كافة أبناء البشر ورفض قاطع للتمييز بين الناس على أساس الحرفة التى يشغلونها ·· كما نرى اليوم ذلك فى مواقف المجتمعات الغربية من العمال المهاجرين ·· والسود ·

واذا كان البعض من أئمة الاسلام قد راووا أن بعض الاعمال تفضل الاخرى

---

(76) الصف ، 3 ·
(77) الاحزاب ، 72 ·

مثل الشافعى الذى فضل التجارة على سائر أنواع الاعمال ، ومالك الذى حبذ الزراعة والنووى الذى مجد الصناعة فان الاساس الاول لذلك التفاضل هو مدى الاثار المترتبة عن كل من تلك الاعمال ·· ومدى اسهامها بالتالى فى تقريب صاحبها من ذلك الهدف الاساسى.

واستنادا الى نفس المبدا كذلك ، تتحدد معايير العمل وأخلاقيته · فالاسلام الذى جعل من العمل محور الحياة الانسانية وأداة سعادة الانسان الدينية والدنيوية قد حرص فى نفس الوقت على توفير الشروط الضرورية التى تمكنه من تأدية ذلك العمل على أكمل وجه ، ولعل من أهم تلك الشروط :

ـ الحرية : وهى شرط أساسى للعمل فى الاسلام لان المسؤولية لا تقوم الا على الحرية ولانه لا قيمة لاى عمل فى مظر الاسلام ، حتى ولو كان الايمان ذاته ، اذا كان قائما على الاكراه « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي** » (78) ·

ويترتب على هذا الشرط شرط آخر لا يقل أهمية الا وهو الاستطاعة ·· فلا حرية فى الاسلام لعاجز أو مريض · ولذلك يرفض الاسلام الاطروحة الكانتية القائلة بأن الارادة هى الاستطاعة (vouloir c'est pouvoir) لان الانسان قد يريد شيئا ولكنه قد يكون عاجزا عن تحقيقه · ولان الدين الاسلامى يسر وليس بعسر « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » (79) · ولذلك قال الرسول (ص) : « يسروا ولا تعسروا » ·

واستنادا الى مبدا الحرية والاستطاعة فى العمل أسقط الاسلام بعض الواجبات على غير القادرين على أدائها « **ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج** » (80) · وذلك انطلاقا من مبدا « رفع الحرج » · بل ان الاسلام ذهب فى هذا الصدد الى أبعد من ذلك حين أباح بعض المحضورات فى حالة الضرورة كأكل الميتة بالنسبة للمهدد بالموت جوعا ·· والافطار فى شهر رمضان بالنسبة للمريض أو المسافر الى مكان بعيد ··· وكل تلك أمور تدخل ، كما هو معلوم ، ضمن المباحث الفقهية الاسلامية التى تعد كما وكيفا أعظم رصيد قانونى وتشريعى عرفته البشرية ، ذلك الرصيد الذى لا يبلغ الى جانبه التشريع الرومانى سوى نسبة واحد على عشرة ·

---

(78) البقرة ، 256 ·
(79) البقرة ، 286 ·
(80) النور ، 61 ·

أما المعيار الثالث والاخير للعمل فهو النية أو القصد التى يعتبرها الاسلام بدورها عنصرا اساسيا فى تقييمه للعمل الى درجة جعل منها فى النهاية الشرط الذى تتوقف عليه كل تلك الشروط المتقدمة ، حيث يرى أن قيمة العمل لا تتوقف فقط على النتيجة الفعلية الحاصلة منه بقدر ما تتوقف كذلك وفى نفس الوقت على القصد الفعلى للعامل ٠٠ ذلك القصد الذى يجعله ، حينما يكون مخلصا وشريفا ، يحصل على نفس الثواب وان لم يتمكن من التحقيق الفعلى للاهداف المنشودة من وراء عمله ٠ ولذلك يقول القرآن : « **لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** » (81) ٠ ويقول الرسول (ص) : « انما الاعمال بالنيات ٠٠ وانما لكل امرىء ما نوى ٠٠ الخ » ٠٠ ولذلك أيضا قرر الفقهاء كما هو معلوم للمجتهد المصيب أجران ٠٠ وللمجتهد المخطىء أجر واحدة ٠

واستنادا الى هذا المبدا كذلك كان الاستنكار الصادق من المسلم بقلبه للمنكر مساويا لمقاومته الفعلية له فى حالة عجزه عن تلك المقاومة ٠٠ كما كانت الكلمة الطيبة والقول المعروف افضل من الصدقة المؤذية ، « **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى** » (82) ٠

على ضوء ما تقدم نتبين أنه اذا كانت الحرية والاستطاعة تضمنان للعمل امكانيته وتحققه فان النية تضمن له أخلاقيته التى تحول صاحبه الى مصدر خير لنفسه وللمجتمعه والى عنصر تقارب وتحابب وتعاون وتقوى وثقة بين أفراد المجتمع ٠٠ وهى الغاية الاولى والاخيرة من كل عمل فى الاسلام ٠

من هنا نفهم سر رفض القرآن لكل عمل لا تحركه نوايا طيبة مهما كانت نتائجه ونفهم كذلك وبالتالى سبب رفضه للمبدا المكيافيلى القائل بتبرير الغاية للوسيلة ، حيث أنه لا انفصال فى الاسلام بين الغاية وبين الوسيلة ، لان الوسيلة لا تتحدد أخلاقيتها الا بأخلاقية الغاية التى ترمى اليها ، تماما كما ان الغاية لا تقيم الا استنادا الى الوسيلة التى تجسدها ٠

وعلى ضوء ما تقدم كذلك تتحدد الاعمال الصالحة فى الاسلام من الاعمال الصالحة ويقيم حسنها أو قبحها والاثار الدينية والدنيوية المترتبة عنها لا بالنسبة لصاحبها فقط بل بالنسبة للانسانية بأكملها ، انطلاقا من المبدا الاسلامى الذى

---

(81) البقرة ، 225 ٠
(82) البقرة ، 263 ٠

ينص ، قبل الفلسفة الوجودية بقـرون وقرون ، على مسؤولية الانسان الجماعية عن كل عمل فردى يقوم به « **من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكانما قتل الناس جميعا ومن احياها فكانما احـيا الناس جميعا** » (83) ٠

ز ـ نتائج العمل :

لا يكتفى الاسلام بالحث على العمل وتحديد وسائله وأهدافه فقط بل يهتم كذلك وفى نفس الوقت بنتائجه كذلك التى لا يقل حرصه عليها عن حرصه عن العمل ذاته ٠

واذا كانـت النتائـج الـروحية والاخروية للعمـل لا تمثـل بالنسبة للمؤمن مشكلة ، حيث وعد اللـه وأكد فى أكثر من آية من القرآن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا بتمكينهم فقط من نتائج أعمالهم يوم القيامة « **وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون** » (84) ٠ بل بمضاعفة تلك الاعمال لهـم اضعافا مضاعفة « **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلـها** » (85) . فـان تلـك النتائج بالنسبة للعمل الدنيوى كانت ولا تزال ـ بسبب ظـلم الانسان لاخيه الانسان وجشعه ـ مصدرا لكـل المشاكل التـى عرفتها الانسانية منذ فجر تاريخها الى اليـوم ٠

ذلك أن الانسان ، كما هو سبق ، قد عرف العمل منذ عرف الحياة ، ولكنه لم يكن يحصل دوما على النتائج الكاملة أو العادلة لعمله ذاك . تلك النتائج التى كانـت تسخر لخدمة أطراف أخـرى مستغلة ومسيطرة ، ممثلة فى فئـات السادة الاقطاعيين فى العهـود القديمة والـوسيطة وفـى الفئـات الراسمالية والاستغلالية فى العصر الحديث ٠

واذا كان النظام الرأسمالى ، الوريث التاريخى لنظام الرق والاقطاع ، قد كرس بحدة ذلك الفصل بين العامل وبين نتائج عملـه استنادا الى فلسفته الاقتصادية والاجتماعية القائمة كما هو معلوم عـلى تسخـير الانسان لخـدمة الاقتصـاد والاقتصاد لخدمة النقود والنقود لخدمة مصالح طبقة مستغلة خاصة . وفتـح بالتالى الباب على مصراعيه لكل أنـواع الكسب غـير المشروع ابتداء مـن الربا والمضاربة الى افتعال الازمات الاقتصادية العالمية ، فان النظام الماركسى الذى جاء

(83) المائدة : 32 ٠
(84) البقرة ، 272 ٠
(85) الانعام ، 160 ٠

بمثابة رد فعل لهذه الممارسات الرأسمالية اللا انسانية لم يستطع بالرغم من الغائه للمكلية الفردية ، التى رأى منها السبب الرئيسى لذلك الاستغلال ، وبالرغم من تمليكه للعمال لوسائل الانتاج أن يضع حدا لذلك الاستغلال أو أن يحقق تلك الحرية الكاملة التى وعد بها العمال بل العالم بأكمله ، وذلك بسبب عدم فهمه للطبيعة الانسانية من جهة ، وبسبب تعقد جهازه الاقتصادى (les apparachikhs) الذى جعله يقع فى النهاية فى نفس المحضور الذى عابه ماركس على النظام الرأسمالى (86) ٠

وبين طغيان الرأسمالية ، وجمود وتعثر الماركسية تحاول نظريات اشتراكية اليوم شق طرق جديدة لتحقيق العدالة الاجتماعية بأساليب أكثر ملاءمة وواقعية بالنسبة لظروف ومطامح كل أمة ومجتمع ٠

على ضوء هذا العرض الموجز لموقف كل من النظامين الرأسمالى والماركسى من نتائج العمل نعرض الآن لموقف الاسلام بالنسبة لهذا الموضوع ٠

ان الاسلام يرفض ، بالنسبة لهذا الموضوع بالذات الحل الرأسمالى والحل الماركسى معا ٠٠ فقد أدان الاسلام الرأسمالية فى أكثر من آية فى القرآن ـ خاصة أثناء حديثه عن الممارسات غير المشروعة لآل شعيب (87) ـ ٠ كما أدان الاسلام كل الفلسفات المادية ، وذلك انطلاقا من مفهومه للانسان الذى لا يمكن ان يحصر فى نظره فى معادلة مادية باهتة (88) ٠

ولذلك طرح الاسلام حلا أصيلا بالنسبة لهذا المشكل ، ذلك الحل الذى لا يصادم الطبيعة البشرية ونزعتها نحو التملك ، ولا يتيح لها فى نفس الوقت أن تحول ذلك التملك الى أداة للاستغلال والسيطرة والظلم ٠

وتجسيدا لهذا الموقف الاصيل طرح الاسلام مبدأ ملكية الله للمال ـ مصدر ذلك الظلم والاستغلال ـ وأعلن أن الانسان مجرد مستخلف لله عليه **« آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (89) « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »** ادراكا منه للدور الاجتماعى الذى يجب أن يكون للمال ، كعنصر تقارب وتكافل ، وابتعادا بالانسان عن كل ضلال وطغيان قد يسببه له ذلك المال ٠

(86) انظر فى هذا الصدد مقال :
Maurice Duverger : Le Monde, 18-7-1981. (Le Socialisme du Troisième Type)
(87) هود ، 84 ـ 85 ٠
(88) انظر :
E. Mounier : Le Marxisme contre la personne. in, Mounier par J. Conilh, Puf, 1966.
(89) الحديد ، 7 ٠

ولان المال ملك لله وللمجتمع بأكمله نص الاسلام على ضرورة قطع يد السارق أمام المجتمع كله كعقاب لـه عن فعلته تلك التى لم يمس بها فقط صاحب المال الفعلى ، بل المجتمع بأكمله ... ومن ثم فان عقابه يجب أن يكون أمام المجتمع بأكمله كذلك . ونفس العلة تكمن وراء الحجر على السفيه الذى يبدد ماله ، وعلى الصبى والمجنـون اللـذين لا يحسنون التصرف فى أموالهم .

ولا يعنى مبدا الملكية النهاية للـه للمال ، دعـوة مـن الاسلام الى مساواة العامل على كسب ذلك المال بمن لا يبذل أى جهد فيه ، فذلك أبعد ما يكون عن روح الاسلام القائمة على الجزاء الكامل عن كل عمل يقوم به الانسان كما رأينا ، ولكنه يحدد فقط طرف اكتسابه وجمعه .. وطرف انفاقه ووضعه فى خـدمة الجميع كذلك .

وهكذا فان المال فى الاسلام لا ينمو بالربا « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » (91) أو باستغلال الضعفاء « **وآتـوا اليتامى امـوالهم ولا تتبـدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم الى أموالكم انـه كان حوبا كبيرا** » (92) أو بعـدم المماثلة «**ويل للمطففين**» (93) أو بالغش « **يأيها الذين آمنـوا لا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عـن تـراض منـكم** » (94) ، أو بالاحتكار « **والذين يكنزون الذهـب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم** » (95) .. أو بالرشوة « **ولا تاكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتـدلوا بـها الى الحكام لتاكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون** » (96) .

وكما يحدد الاسلام طرف كسـب المال يحدد كذلك طرق الانفاق الكفيلة بوضعه فى خدمـة المجتمع باكملـه .. بكيفية لا تعرف الاسراف أو التقسير ، بـل بين ذلك قـواما .. « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (97) . ولذلك كانت الزكاة والخـراج والضرائب ، والصـدقات الموسمية أو الـدائمة ، والكفـارات ، وغيرها مـن مظاهر الانفاق الواجبة أو المستحبة فرصا وطرقا وأبوابا لخروج

---

(91) البقرة : 275 .
(92) النساء : 2 .
(93) المطففين : 3 .
(94) النساء : 29 .
(95 التوبة ، 33 .
(96) البقرة ، 180 .
(97) الفرقان ، 67 .

المال من يد المستخلف عليه الى كل فئات المجتمع كل حسب استحقاقه ·· وحاجاته (98) ·

بمثل هذا المفهوم الاصيل يسخر المال لخدمة المجتمع بأكمله ولتدعيم تكافله وتضامنه وتحابيه . وبمثله كذلك يتحول بالنسبة لمالكه الى سبب لسعادته الدنيوية والدينية لا الى وسيلة لشقائه وتعاسته ·

واذا كان ذلك هو دور المال بالنسبة للمجتمع باكمله فان دوره بالنسبة للعاملين عليه لا يحتاج بالتالى الى مناقشة·· أو مراوغة ··

لذلك كانت التشريعات الاسلامية الخاصة بالعمل وبالعمال نموذجية فى تلقائيتها وفى واقعيتها وفى بساطتها وعدالتها ·

ولذلك أيضا سبق الاسلام ، قولا وعملا ، كل الفلسفات والديانات بالنسبة لهذا الموضوع ·

فالاجر حق لا ينازع : « **الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون** » (99) ·· وهو لا يمكن أن يكون الا على قدر العمل « **ولكل درجات مما عملوا** » (100) ·· والاجر يجب أن يكون بالاتفاق مثل البيع والشراء ، وان لا يقل فى نفس الوقت عن الحد الضرورى الادنى للمعيشة الكريمة للعامل « من استأجر أجيرا فليسم له أجرته حتى يطمئن خاطره الى قيمة ماله من أول لحظة » (حديث شريف) « من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس » (101) · والدولة متكفلة بحماية الاجر « أعطوا الاجير أجره قبل ان يجف عرقه » (حديث) « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه » (حديث) ·

والدولة مسؤولة كذلك عن توفير العمل للعاطلين ومدهم بأدوات الانتاج والعمل « يروى أن الرسول (ص) جاءه رجل خال من وسائل الكسب ، فدعا (ص) بقدوم وبيد خشبة سواها بنفسه ووضعها فى القدوم ثم دفعها للرجل وأمره أن

---

(98) د· على عبد الواحد وافى : المساواة فى الاسلام ، اقرأ ، 1965 ، دار المعارف القاهرة ، ص 98 ·

(99) التين ، 6 ·

(100) الانعام ، 132 ·

(101) انظر كتاب : الاسلام لا شيوعية ولا رأسمالية ، للاستاذ البهى الخولى ، دار الفكر ، بيروت ·

يذهب للعمل فى مكان عينه له » (102) .
كما سبق ان أشرنا .

ولا يكتفى الاسلام بهذه الاجراءات بل يسبق كذلك كل تلك الفلسفات والنظم والديانات الى تقرير حقوق أخرى لم تتوصل الى تحقيق البعض منها أى من تلك الفلسفات أو الديانات أو النظم وذلك مثل حق العامل فى تامين نفقاته العائلية باعتبار ذلك جزءا من كرامته حيث يؤكد الرواة أن الرسول (ص) كان يعطى الاهل حظين والاعزب حظا واحدا ، وحق العامل فى المسكن وفى المواصلات « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليس له زوجة فليتزوج أو ليس له دابة فليتخذ دابة » (حديث) . وحق العامل فى عدم اجباره على العمل «لا تكلفوهم بما لا يطيقون فاذا كلفتموهم فاعينوهم» (حديث) . وحق العامل فى الراحة « ان لنفسك عليك حقا وان لجسدك عليك حقا » (حديث) . وحق العامل فى الاخذ من مال الغنى اذا جاع دون أن يوصف بالسرقة وفى هذا الصدد يروى عن الخليفة عمر بن الخطاب (ض) أنه قال لرأسمالى جاءه يشتكى اليه عماله الذين أخذوا من ماله لياكلوا « أيها اللص اذا عاد هؤلاء الى السرقة قطعت يدك أنت » . وحق العامل فى طلب تدخل الامة الاسلامية باكملها اذا تنازع مع صاحب العمل وخشى منه ظلما .. وجورا « **وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين** » (103) .

تلك هى فلسفة العمل فى الاسلام ، وتلك هى مبادئها وتطبيقاتها كذلك ، تلك المبادىء والتطبيقات التى يعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه (ض) أصدق نموذج لها ... فما أحوج المسلمين اليوم الى العودة اليها ... من جديد ليستلهموها فى مسيرتهم بل ما أحوج الانسانية باكملها اليها ، خاصة بعد أن أثبتت كل الايدلوجيات والمذاهب المعاصرة الشرقية والغربية على السواء فشلها الذريع داخل اوطانها ذاتها .

---

(102) نفس المرجع السابق .
(103) الحجرات ، 9 ـ 11 .
وانظر فى هذا العدد كذلك مقال الدكتور محمد البهى ، مجلة الوعى الاسلامى العدد 152 ، شعبان 1397 هـ .

العمل والعامل فى المفهوم الاسلامى

محمد الاكحل شرفاء

ان آيات القرآن المجيد لا تذكر العمل الا مسبوقا بالايمان اى قائما عليه والعقيدة الاسلامية ، انما تعلن عن نفسها بافعال المؤمن ومواقفه ، ولذلك حدد العلماء مفهوم الايمان بانه « ما وقر فى الصدر وصرح به اللسان وصدقته الجوارح » وتعبير « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » يتكرر فى الكتاب بشكل يشد الانتباه ولا يدع للشك مجالا فى حقيقته ان الاسلام لا يتحقق أبدا فيمن يقول ولا يفعل ، ويعلن ولا يلتزم والالتزام **اسلاميا** يعنى تكييف المواقف وتعديلها استمرارا كى تتلاءم تماما مع ما جاء فى الكتاب وصح فى السنة ٠ وبدون ذلك فلا يصلح عمل ولا يستقيم سلوك ٠ والعمل فى المفهوم الاسلامى يعنى التحرك فى كل مجال انما داخل الحدود المرسومة من الله الحكيم الخبير وان كل تجاوز لحدود الله يعتبر ظلما للعامل نفسه ، قبل ان يمتد اثره الى غيره.

والله هو خالق الانسان وهو مدبر أمره وهو أعلم بما يصلح به شأنه فى عاجل حياته وآجلها ، ولذلك وضع لحياته نظاما عمليا ينبع من عقيدة راسخة اذا هو اقام حياته عليها فلن يضل ولن يشقى ، واذا هو أسس بناءه على قواعدها فان البناء يطول ويسمو ويتحدى كل الهزات ٠ اما اذا اقامه على غير ما شرع له ربه فانه لا محالة سينهار مهما طال الزمان ، « **افمن اساس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من اسس بنيانه على شفا جرف هار ٠ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين** » (التوبة : 109) ٠

لذلك جعل الاسلام ضمانا لكل عمل كى يؤتى ثماره المرجوة يانعة طيبة أن يؤسس على تقوى الله ويستهدف مرضاته وبدون ذلك فلا يمكن الاطمئنان الى قول قائل، أو عمل عامل ٠٠ والشعور برقابة

الله عز وجل يجعل المؤمن يقول فصلا ويحكم عدلا · لانه يتعامل أساسا مع ربه وهو مؤمن بأنه سيلقاه وان عمله ذاك معروض عليه يوم القيامة · « **يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم** » · واذا كان الموظف أي موظف على يقين بأن عمله في اطار وظيفته مراقب وأنه سوف يحاسب على كل ما كلف به في اطاره ، نتيجة لعمله فانه سيجازى ثوابا او عقابا ، انه بهذا الاعتبار سيحذر أي تهاون وتفريط أو عبث في عمله هذا مع الناس فكيف يتصرف مع الله وله المثل الاعلى وهو يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور وعندما يتلو المسلم العامل في أي مجال قول الله عز وجل : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** » (التوبة : 105) ·

فانه يشعر حتما بان واجبه هو استفراغ الجهد والطاقة في اتقان عمله على الوجه الذي يبلغ به رضوان الله تعالى علما بان الله يعلم · وعلما بان رسول الله أيضا سيعلم ، وبان المؤمنين أيضا سيشهدون جميعا عدالة الله تعالى وهو يجازي عباده بما يستحقون من ثواب يوفى لهم ان احسنوا · كما سيشهدون عقاب الذين صدوا عن سبيل الله وتعدوا حدوده وظلموا أنفسهم فاوردوها موارد الهلاك ·

هذه التعبئة النفسية ضرورة لبناء انسان نظيف شريف يصون الامانة ويحافظ على العهد ، وينهض بالمسؤولية ويرعى كل ما استحفظ عليه من مال أو متاع أو أسرار · وبمثل هؤلاء الصفوة من الثقات بنيت الامة الاسلامية العظمى التي علمت الدنيا دروس الحق والعدل فعلا بنفس القوة والجد الذي بلغت به رسالة الله قولا ·

الامة التي علت بما تركز في وجدانها من خير وفضيلة فنوه الله بها منزلا : « كنتم خير امة اخرجت للناس » فلم تكن افضليتها على الامم لسبب من تلك التي تعودت الامم ان تتفاضل بها · مثل القوة العسكرية والكثرة العددية أو العراقة الحضارية وما الى ذلك من نعوت تعود الناس ان يفاخر بها بعضهم بعضا وانما كانت افضلية الامة الاسلامية نابعة من الخير فقط هذا الخير الذي امتلأت به أنفس المؤمنين والمؤمنات فتشبعت به ، وفاض منها على العالم فملأه حقا وعدلا وسعدت به البشرية عهدا طويلا وما تزال بقية من الفضائل الاسلامية تعيش عليها البشرية في مجال التعامل حتى الآن ·

العمل حياة : قال الله تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » ، الآية العاشرة من سورة الجمعة · هذه الآية تلقى ضوءا ساطعا على نوع الحياة التى ارادها الله للمسلمين باعتبارهم **رادة** النوع البشرى فوق الارض · هذه الحياة التى تمتلىء الانفس بطاقتها الروحية الزكية بالصلاة « **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصل** » (الاعلى) ثم تنطلق الى العمل الجدى الحازم فى كل مجال طلبا للرزق وابتغاء للعز ، وسعيا للكرامة ، وجهدا لبلوغ أرقى ما يجب أن يصل اليه الانسان ممارسة لرسالته فى الارض باعتباره خليفة الله فيها ·

ان الحياة حركة وسعى ، واذا توقف هذا فمعنى ذلك الموت · وحياة المسلم مقصورة على هذه الدنيا بل هى ممتدة الى عالم الجزاء بلا انقطاع · وحتى المسلم ـ وهو متمسك باسلامه ـ لا يعتبر الا معبرا من عالم العمل الى عالم الجزاء ، وخاصة أولئك الذين وهبوا حياة العاجلة سخاء وبذلا فى سبيل الله ثم أستشهدوا فيه انهم أحياء غير أموات بتقرير الله سبحانه : « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل احياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وان الله لا يضيع اجر المؤمنين** » (آل عمران : 69 ـ 71) ·

كيف طبقوا ؟ من هذا المنطلق نهر أمير المؤمنين رجلا رآه نائما بالمسجد بعد ان قضيت صلاة الجمعة وانتشر الناس الى أعمالهم · انه فعل ذلك تاديبا لهذا الذى حسب وجوده بالمسجد وقت انطلاق الناس الى أعمالهم عبادة فى حين لا تعتبر العبادة الا التزاما بالخط المرسوم للانسان الا مثل فى المنهج الاسلامى · فحين يكون الوقت للشغل فى اى مجال فتلك هى العبادة المطلوبة لا الصلاة · ولا العكوف فى المساجد · فان للصلاة وقتا محدودا لا تصلى قبله ولا بعده وهو لا يستغرق الا دقائق معدودة ثم يجب ان يتحرك المسلم للعمل المتواصل بغية الحصول على رزق كريم من عمل يديه ونتاج جهده هذا هو الخط الاسلامى المستقيم · وقد عبر عن ذلك أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ حين قال : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : (اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وانما يرزق الله الناس بعضهم من بعض) :

المجـالات : فاذا كان العمل مظهرا من مظاهر الحياة بما يؤديه من وظائف ويحققه من أهداف ، فانه لا يمكن اعتبار كل عمل ينجزه الانسان قادرا على تلبية الحاجات الضرورية للبناء الانساني الامثل • فالعمل عملان :

الاول : وهو الذى يصفه الاسلام بـ « الصالح » اذا نظفت وسائله ، وشرفت أهدافه والسيء اذا خبثت وسائله وانحطت أهدافه وقد حذر الاسلام من الاعمال السيئة ، وانذر فاعليها بالعذاب الاليم فقال تعالى : **« والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم كانما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »** (يونس : 27) •

كما بشر الذين يأتون بصالح الاعمال لصالح الفرد أو المجتمع أو هما معا ، بحسن الثواب فى العاجلة ، وحسن المآب فى الآجلة : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون »** (النحل : 57) •

والعمل الذى يعد صالحا فى الاسلام لا يدخل تحت حصر لتعدد المجالات ، ولكن يمكن حصر ذلك كله ـ حسب مجالنا هذا الصحفى المحدود ـ فى عنصرين :

أ ـ العمل لله : وهو يتمثل فى أداء الشعائر التى هى ـ كما أسلفنا ـ تعبئة روحية للنفس الانسانية كى تقوى على المواجهة والتحدى فى معركة الصراع ضد الهوى المضل ، والشيطان المزل • وتتلخص هذه الشعائر فى (الصلاة والصوم والزكاة والحج ، والصدقة والنجدة• واماطة الاذى ويقظة الاحساس الدينى) مع ملاحظة ان هذه الشعائر ذاتها لا يمكن فصلها اطلاقا عن الواقع الاجتماعى عند تأملها وتحليل أهدافها كما ذكرت ذلك فى غير هذا المكان •

ب ـ عمل الفرد لصالح المجتمع :

ان ذلك يعنى سعى الفرد لاصلاح مجتمعه ورفع مستواه ، ودفع الشر عنه وذلك بتنوير العقل بالمعارف ، وتهذيب الخلق بالتربية الحسنة ، وترويض الجسم على الحياة الصحية السليمة ، كل ذلك لتكون لنا من افرادنا جميعا أعضاء سليمة قوية نهنى بها مجتمعنا القوى السليم الذى يجب ان يعيش حياة طيبة يامن كل فرد فيها على نفسه وماله وعرضه (تطبيقا للمعاملات الاسلامية والاخلاق الاجتماعية التى أقرها الاسلام) من ذلك تحديد حقوق الاسرة وواجبات كل فرد منها نحو الآخرين واذا قامت الاسرة ـ وهى اللبنة الاولى للمجتمع صحيحة سليمة البنية فان البناء الاجتماعى كله

بالتالى سينمو قويا راسخ القواعـــد ، وينشأ كل فرد فى الامة ساعيا فى كـل ما يحقق للامة نجاحها وسموها وتحقيق أهدافها سعيه لصالح أسرتـــه وذوى قرابته • وبهذا تقوى الروابط وتضمن المصالح ويعلو شأن المجتمع ويبرز لنا أن شاء الله جيل صالح جديد يعيد امجاد السلف ويمحو صفحة الهزيمة على خريطة الوطن الاسلامى ، وعندئذ يجىء بحول الله ـ كرة أخرى ـ نصر الله والفتح •

« كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين • ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون ، ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين » (الانبياء : **104 ـ 106**) •



«حسدا من عند أنفسهم»

ـ حــول افتراءات كتــاب ـ

أبو المجــد احمــد

بســم اللــه الرحمــن الرحيــم

« **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفــارا حسدا من عند انفسهم من بعــد ما تبــين لهــم الحق** » (البقرة : 109) ٠

ستظل هذه الحقيقة بلا شك قائمـة ما بقى الصراع الابدى بين قوى الحــق وطاغوت الضلال ٠ ان مرور اربعة عشر قرنا كاملة لم يزد تلك الحقيقة الا تاكيدا وثبوتا ٠

ولقد كان تاريخنا كله مرآة لهــذا الصراع المعلن حيناً والمستتر إحيانــا بيننا وبين اعدائنا من الصليبين واليهود، وسيظل ذلك الصراع بين الدين الحــق والتحريف الحاسد ما دامت الارض ومن عليهــا ٠

واذا كان قانون الفعل ورد الفعل له فعاليته الملحوظة دنيــا الماديــات والاجسام، فمن السهل أن نلاحظ بوضوح أيضا تلك الفعالية فى دنيا الافكـــار والعقائد والسياسيات ٠

وعلى ذلك فلم تكن بالمستغربة تلك الحملة الاعلامية الصليبية المسعــورة ، التى صاحبت مظاهر الصحوة الاسلامية الحديثة ، خاصة بعد نجــاح الثــورة الاسلامية فى ايران ٠

والواقع أن أحدا من الاوروبيــين لا يقلل أبدا من الاخطار المتوقعة مــن جراء تلك الصحوة على مستقبل الغــرب واحتكاراته ونهبه لثروات وامكانيــات الشعوب بأبخس الاثمان ٠ ولن تتوانى الصليبية الجديدة فى استعمــال كـــل

امكانياتها لاجهاض هذه الصحوة الاسلامية ولمحاولة هدم صرح ذلك الدين المحرك لكل تلك الشعوب الناهضة ·

ومن الاسلحة المجربة منذ مدة سلاح الاستشراق الذى طالما خبأ تحت عباءته العلمية المزعومة خناجر الاكاذيب المسمومة والافتراءات المغرضة ·

وآخر ما وصلنا من ذلك كتاب جديد بعنوان « صلة القرآن باليهودية والمسيحية » للمستشرق الالمانى د· فيلهم رودلف ، ترجمه عن الالمانية عصام الدين حفنى ناصف ونشرته دار الطليعة للطباعة والنشر ببيروت ، ضمن سلسلة كتب تحت عنوان « نقد الفكر الدينى » ·

ونظرا لما يحتويه الكتاب من افتراءات وادعاءات بأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى ألف القرآن ، وأنه اقتبس مواده من التوراة والانجيل ، فقد نويت ان شاء الله أن أحاول توضيح الاخطاء العلمية والاكاذيب المتعمدة فى طول الكتاب وعرضه من خلال هذه الصفحات ·

الموقف المبدئى المسبق :

ولعل أهم ما يلاحظه القارىء هو موقف مؤلفه المسبق الذى يقوده فى كل استنباطاته الخاطئة ، والتى منبعها ليس فقط انكار لنبوة الرسول ورسالة الاسلام ، بل حقد عليها وازدراء لها ، ونلاحظ ذلك فى كثير من المواضيع بالكتاب نذكر منها ما يلى : ـ

1 ـ فى صفحة 7 يقول المؤلف : ـ « وانا لمضطرون الى أن نفرض كذلك أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل على نحو ما الى مكة ـ التى يعنينا أمرها كثيرا لانها موطن محمد ـ وان لم يكن ثم ما يثبت انه كان بها يهود أو مسيحيون فى عهد محمد » · ـ فهو مضطر الى هذا الفرض رغم غياب ما يثبته ·

2 ـ وفى صفحة 14 يقول : « وعندما ننتقل الى سؤال : كيف كان اقتباس محمد للمواد من الدينين العالميين الكبيرين يبدو لنا من بادىء الامر أنه من غير المرجح أن يكون قد قرأ كتبا دينية من كتب اليهود والنصارى وثم ما يبعث على الاعتقاد بأنه عكس ذلك : أى حصل ما حصل من المعلومات والانباء عن طريق السماع » ·

والكاتب هنا بعد أن استحال عليه اثبات اطلاع الرسول على كتب اليهود والمسيحيين يستنتج مباشرة أنه قد حصل على ما حصل عليه عن طريق السماع ، دون أن يقيم أى احتمال ـ بدافع الحياد العلمى ـ لان تكون هذه المعلومات والانباء وحيا ربانيا أنزل على محمد ·

ولكنـه فى نفس الصفحـة ، وفى الصفحة التالية لها يعود فيشكك فى أمية الرسول ، فيقرر أن الرسول كان يعلم القراءة والكتابة بلا شك ، لان البيئـة المكية كانت « تضطرب بالتجارة وتعج بالحياة المالية ويدلى فيهـا بالمحاضرات والبحوث العلمية » ـ يقصد ملتقى عكاظ بلا شك ، ويخلط عن عمد أو عن خطأ فاحش بين نظم الشعر بالسليقة ثم حفظه والقائه فى سوق عكاظ وبين البحـوث العلمية والمحاضرات المكتوبة التى نعرفها اليوم • فمكة بيئة ثقافية تعرف القراءة . ومحمد لذلك ـ فى رأيـه ـ لابد وأن يكون على علم بالقراءة ، متجاهلا ما ثبت فى سيرته عن أميته ، واقرار الصحابـة والمسلمين فى عهده ومن بعده بذلك دون استثناء •

وللاستفادة من هذا الاستنتاج الخاطىء يقول بشكل عارض فى نفس الصفحة : ـ «على أنه اذا كان قد قرأ تلك الكتب فلابد أن يكون قد اقتبس منها بعض عبارات أدرجها فى القـرآن » ـ متناسيا أن التوراة والانجيل فى هذا العصر لـم يكونا قد ترجما من اللغتين اللاتينيـة والسريانية الى العربية • وهو يجتهـد فيما بعد فى فحص بعض العبارات التى يقول عنها : ـ « يجوز لنا مع التسامح أن نعدها مقتبسة » •

3 ـ ويدفعه موقفه المبدئى فى صفحة 26 الى السخرية من احـد النصوص القرآنية ، فيقول فى معرض حديثه عن تفسير الآية الكريمة « **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** » : ـ « كلمة جمل فى اللغة العربية تفيـد أيضا معنى الحبل ولهـذا يلجأ بعض المفسرين الى هـذا المعنى ليهربوا مـن الصورة المضحكة السخيفة آنفا » •

4 ـ بعد أن يفترى على النبى صلى الله عليه وسلم فيزعم أنه أخطأ فى سرد قصة طالوت وجالوت وأنه أخطأ اذ ظن أن مريم أم عيسى هى أخت هارون ، وأنه أخطأ فى الحديث عن هامان وزيـرا لفرعون بدلا من ملك فارس ، وأنه وضع قارون فى بلاط فرعـون ، وخلط بـين مناسك التوراة ـ وكل هذه الافتراءات الواهية سنرد عليها فى موضع آخر من هذا التعليق ان شاء الله ـ بعد ان افترى على النبى كل ذلك صدق نفسه واستنبط حكما لا يصل الشك اليه فيقـول فى صفحة 40 : « لم يكن كل ما رأيناه من اساءة فى الفهم لتقع لو أنه تيسر لمحمد أن يطلع على الكتاب المقدس» • ـ والمعلوم أن كل هذه المفتريات لم تكن لتقع لولا افتراض الكذب مسبقا فى الرسـول ، ولو كان موضوعيا لافتـرض أيضا أن تكون نصوص التوراة بدورها عرضـة

للخلط والخطأ على نحو ما يؤمن بـه المسلمون الآن من تحريفها ·

5 _ والكاتب ليس على استعداد لان يرى سوى محمد المؤلف المبتدع أو الناقل المقتبس فيقول فى صفحة 46 : _ « على أن محمدا أخذ عن الوثنيين اسم اللـه وتصور أنه اسمى من الاصنام ، بيد أنه أضفى على هذا اللفظ معنى جديدا بقوله أنه لا شريك له» · وفى صفحة 57 يقول : « بيد أنه _ أى محمد _ ابتدع بعـض تفصيلات عذاب الجحيم من بنات افكاره كتجريع الملعونين ماء مغليا وذلك ما لم يتسن لنا العثور عليه فى غير القرآن » · وفى صفحة 59 يقول : _ « وبغض النظر عما نجد فى الديانة الاسلامية من آثـار يهودية فان محمدا كان فى جميع المواضع الهامة متأثرا بالمسيحية » · ويقول فى صفحة 61 : _ « وهناك الى جانب هـذا شيء فنى لا يمكن أن يكون محمد قـد ابتدعه ابتداعا » · _ وننتظـر لعـل الدكتور رودلف يرعوى فيذكر الوحى ، ولكنه يتابع فيقول : _ « وهو تصور أن فى السماء كتابا يرسل الله اليه منـه قطعة اثر قطعة ، ويسميه محمـد « أم الكتاب » كما يسميه « اللوح المحفوظ » و « كتاب مكنون » · _ ونسال عن مصدر هذا العلم لدى محمد فيجيب رودلف : _ « من البديهى أن هذا التصور لميكانيكية التنزيل ليس بفكرة طرأت على ذهن محمد وانما هو راجـع الى معرفته بالنقليات اليهودية _ المسيحية » · ولان رودلف لا يعتقد أن الاسلام دين سماوى فهـو لا يستطيع أن يتصور للخطة أن مصدر علم محمد يمكن أن يكون هو نفسه مصدر علم اليهود والمسيحيين ، وهو الـوحى المنزل من السماء ·

6 _ وبما أن رودلف ينكر أن يكون هناك وحى على محمد منذ البداية فهـو حين يتحدث عن حادثة رؤيته لجبريـل وحادثة بدء الوحى يقول فى صفحة 60 : « وانا لننزع الى تصديق محمد وتفسير ما حدث بأنه شاهد حقا ظاهرة مـن الظواهر المادية حسبها هو ظاهرة سماوية فان الحادث الاول الذى وقع له لم يكـن سوى رؤيا اما الحادث الثانى فكان مـن احلام اليقظة لا مجرد هذيان أو حلـم عادى . وبذلك تكون سدرة المنتهى وجنة المأوى مكانين فى مكة لا فى السمـاء » هكذا ·

7 _ ويعتقـد رودلف أن محمـدا هو مؤلف كتابه ومؤسس دينه بنفسـه بالاقتباس والتلفيق فقد جعله يختـار اسم جبريل ليعلن انه حامل الوحى اليه ليكيد اليهود به فيقول فى صفحة 70 : _ « يزعمون أن يهود المدينة كانوا يعدون جبريل عدوهم ، ولم نجد فى علم الملائكة

اليهودى سندا لهذا الزعم فيما يتصل بجبريل أما ميكائيل فهو حقا أمير الملائكة عند اسرائيل وهو حاميها » • ـ ولكنه يعود فيثبت فى هامش تلك الصفحة أن ابن صوريا سأل النبى أو عمر عمن يأتى بالوحى من الملائكة فقال جبريل ، فقال عدونا يأتى بالعذاب ولو كان ميكائيل لآمنا لانه يأتى بالخصب والسلم ، فنزلت آية « **قل من كان عدوا لجبريل •••** » •

8 ـ ودائما مع أثر الموقف المسبق لدى الكاتب فى اصداره لاحكامه ، نجده يفترى على الرسول حتى فيما زعمه من الاقتباس ، فيقول فى صفحة 74 . ـ « ولم يتورع ـ أى محمد ـ فى سبيل احكام المطابقة بينه وبينهم ـ أى الانبياء السابقين ـ عن تعديل قصصهم وجعلهم يتحدثون بأسلوبه ، فجاءوا فيما يتصل بأمرهم شديدى الشبه بعضهم ببعض وبمحمد » • ـ ولم يتعب المؤلف نفسه فى اثبات ذلك ولو بدليل واحد يكون واهيا كعادته فى كل الكتاب •

9 ـ وينطلق خيال المؤلف فى صفحة 77 فيقول : ـ « فلما أقام بالمدينة ولابس اهل الكتاب وخيب أمله فيهم أنهم لم يؤمنوا برسالته ، كان عليه لكى يواجه معارضتهم أن يعيد تشييد دينه على دعائم جديدة ، وقد وجد العون فى ذلك من شخصية ابراهيم الذى يوقره اليهود والمسيحيون على السواء ـ ثم زعم أن الكعبة انما بناها ابراهيم وابنه اسماعيل ومن البديهى أن هذا الزعم لا يستند الى أساس فى المنقولات اليهودية ـ المسيحية فلعله نبت قبل محمد فى أذهان اليهود والمسيحيين العرب» • ـ وورودلف يطمئن الى التوراة والانجيل كمصادر وحيدة للمعلومات التاريخية . وليس للقرآن من هذا الاطمئنان نصيب أبدا ، ويزيد على ذلك أنه لم يحاول بالمرة أن يثبت زعمه بأن فكرة بناء ابراهيم واسماعيل للكعبة قد نبتت قبل محمد فى أذهان اليهود والمسيحيين العرب دون أى دليل دينى أو تاريخى على ذلك •

10 ـ لازلنا مع أثر الموقف المسبق على الفهم واصدار الاحكام الخاطئة ، فنرى فى صفحة 83 كيفية فهم رودلف للشهادة اذ يقول : ـ « أضيفت الى صيغة الشهادة الاسلامية (لا اله الا الله) كلمة (محمد رسول الله) أى رسوله الوحيد »• ـ فهل هناك مغالطة أوضح وأكبر من هذه •

11 ـ وهو حين يعييه البحث عن الاصل الذى اقتبس منه محمد فريضة الصيام يقول فى صفحة 99 : ـ « ولم يكن اليهود يعرفون صياما من هذا النوع وبهذا الطول ، ويبدو أن فرض الصوم شهرا كاملا هو انتحال من الصوم الكبير

(صوم الاربعين) الذى لعله لم يكن يدوم عند المسيحيين العــرب المنعزلين عــن الكنيسة الكبرى 40 يوما كاملة » . — فهو يأبى الا أن يتعسف الاستنباط حتى يكون صوم الاربعين هو نفسه صـــوم الشهر الاسلامى ، لانه لـم يعثـر فى اليهودية أو المسيحية على صوم مقداره شهر كامل .

12 — وحين يتعرض لتحريم الخمر باسلوبه الغير علمى يتجاهـل حكمـة تحريمها ، وحكمة التدرج فى التحريم ، ويقر بجهله لاصل هذا التحريم ، ويدفعه موقفه المبدئى الى القـــول : — « فليس الحافز الوحيد — أى حافز التحريم — بواضح جلى ، وربما كان الباعث عليـه دوافع صوفية مصدرها يهودى أو عـلى الارجح مسيحى » . وهكذا يتردد بـين اليهودية والمسيحية باصرار على ان ينسب اليهما كل عناصر الشريعة الاسلامية .

13 — وحين يلاحظ ان القرآن يتحدث عن عيسى بالاحترام والتبجيل يقول فى صفحة 111 : — « وهناك دليل آخر على مبلغ وقوع محمد تحت سحر المسيحيـة هو الطريقة التى يتحدث بها عن عيسى ... ولا تفسير لذلك الا بانه كان متأثرا بالمسيحية » . — فرودلف هنا أيضا ليس على استعداد أبدا لمناقشة احتمـال أن يكون عيسى ومحمد نبيين مرسلين يجـل المتأخر منهما السابق .

14 — وهو من موقفه المبدئى المسبق يعتقد ان محمدا قد ألف القرآن وليس لديه اعتقاد فى أى احتمال آخر ، فيرى فى صفحة 120 : — « ان محمدا لم يقف فى سبيل السجع عند تغيير الاشكـال المألوفة للكلمات بل انه عمد كذلك فى بعض الاحيان الى تغيير المعنى » . — كما أن محمدا قد قرأ انجيل لوقا فعـــرف الشطر الاول من حيـــاة يوحنا (النبى يحيى) — « أما الشطر المتاخر من حياة يوحنا فلم يكن محمد على علم به ومن ثم لم نسمع عنه الا بضع كلمات عامة » صفحة 125 — هكذا تستمر الاستنتاجات الغير موفقة فى تتابع يبعث على الدهشة.

15 — ومن نفس المنطلق لا يجـــد المؤلف تفسيرا لحديث القرآن عن معجزة ميلاد عيسى ثم حديثه عن عيسى كانسان عادى ياكل ويمشى فى الاسواق الا أن هذه هى طريقة محمد غير النظامية فى الاقتباس فيقول فى صفحة 130 : « وكون محمدا قد انتحل ميلاد عيسى العجيب هو فى الواقع أمر يستدعى الانتباه ، اذ انه فيما عدا ذلك قد الح فى تبيان ان عيسى شخص عادى وكان دائما يجادل فى نبوته لله ، وهذا يبين طريقته غـير النظامية فى تقبل الآراء الاجنبية ، لـم

يكن محمد ثاقب الفكر ، ولذلك فهو ، فيما أورده عن حبل مريم ، يجعل المرء لا يفقد الاحساس برغبته فى أن يستبين بالدقة ، ما الذى يدور بخلده » • — والمؤلف هنا لا يستطيع التسليم بسهولة بأن يكون عيسى بشرا عاديا ، ولكنه يطمئن جدا الى أن محمدا لم يكن ثاقب الفكر ، مخالفا بذلك كل ما عرف عنه صلى الله عليه وسلم وشهد به حتى الاعداء الذين ينكرون نبوته ويعللون نجاحه بذكائه الخارق للعادة لا أكثر ولا أقل •

16 — حين يتعرض لنبوءة « النبى الذى سيرسل » المذكورة فى الانجيل لا يجد الكاتب بدا من الاعتراف بوجودها فى مصادر مسيحية ، ولكنه يقلل الى حد الانكار أهمية هذه المصادر فيقول فى صفحة 134 : — « ومن التفصيلات الهامة أن الآية 6 من سورة الصف تعلن مقدما أن النبى الذى سيأتى بعد عيسى سيكون اسمه أحمد ، ومهما تبدو لنا فكرة محمد الاخيرة هذه عجيبة فان لها عند المسيحيين اليهود الغنوصيين بعض السند ، فقد نقل لنا هيبوليت من تعاليم الياس أن المسيح لم يولد الا فقط من العذراء • ولعله قد وصل الى مسامع محمد بعض الآراء مثل أن « المسيح » أى النبى الحق سيظهر بعد عيسى فى شخصيات أخرى ، فخوله ذلك بعض الحق فى القول بانه قد أعلن عن مجيئه فى كتاب الوحى المسيحى » • — وهو يظهر محمدا هنا بصورة الانتهازى الذى استغل وجود رأى ضعيف عند شيعة قليلة محرفة بان المسيح سيعود فى شخصيات أخرى ، ولا يتطرق اليه الشك أبدا فى أن يكون هذا الرأى بقايا نبوءة حقيقية حذفت عمدا من الاناجيل الاربعة ، وان كانت لا تزال موجودة فى الانجيل الخامس المحظور وهو انجيل برنابه ، بل ربما فى انجيل يوحنا أيضا الذى نقل منه رودلف فى صفحة 31 قوله : — « كلمتكم وأنا عندكم ، وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم » •

وموقف رودلف يتكرر عند التعرض لفكرة أن هناك شبيها قد صلب مكان المسيح ، وهى الفكرة التى اعترف بوجودها فى صفحة 138 اذ يقول : — « فمن المحال عنده — أى عند محمد — أن يكون من الممكن أن تنتهى حياة رسول من الرسل مثل هذه النهاية ، وأنما حدث على العكس من ذلك أن صلب اليهود أثناء نقله وتنفيذ الحكم فيه رجلا آخر شبيها به ، وهو رأى لم يصدر من عنديات محمد ، بل قال به بعض الجنوستكيين ومن ذلك

ما زعمه البازيليديانيون من أن سيمون من بلده كيرينيا صلب مكان المسيح » .

ونفس الموقف عند الحديث عن المائدة التى تختلف بعض الشيء عن العشاء الاخير المعتقد أنه هو نفسه المائدة التى ذكرها القرآن ، اذ يقول رودلف « من المستبعد تماما أن يكون قد تنوقلت بينهم - يقصد المسيحيين العرب - مثل هذه السيرة الممسوخة عن العشاء الرباني فلابد أن يكون الامر هنا أمر سوء فهم من محمد » . - فليس هناك أدنى شك فى النصوص الانجيلية ، ومع ذلك يتغاضى عن تعضيدها للنصوص القرآنية، وهذا يتفق تماما مع منطقه العلمى فى كل الكتاب .

17 - عندما تعرض الى آية « **وانه لعلم للساعة** » فى صفحة 139 تشبث بتفسير ضعيف لها على أنه علم لعيسى بالساعة ، رغم أنه يقر بان ضمير الغائب فى « انه » قد يعود كما يحدث كثيرا على القرآن نفسه ، ولكنه يتشبث بالتفسير الذى يرى أن عيسى يعلم الساعة ليقول فى بساطة أن ذلك يتناقض مع كل أقوال محمد ، التى يتفرد فيها الله بعلمه للساعة ، ويعضد اعتقاده بالآية التى تقول : « **فلا يظهر على غيبه أحدا ، الا من ارتضى من رسول** » . - والغيب هنا كما هو واضح غير محصور بأى شكل فى علم الساعة .

18 - كما لم يتلكأ الكاتب فى استعمال التأثير النفسى عن طريق الايحاء اللاموضوعى فى نفسية القارىء من أول الكتاب ، فتجده يقول فى صفحة 8 مثلا : - « ولو شئنا أن نستدل على مدى علمهم - يقصد اليهود العرب - بما استقاه عنهم محمد من معلومات - « وسنرى فيما بعد أنه استدلال صائب » - لما كان لنا أن نعزو اليهم علما كثيرا » - . والقارىء يتجرع هذه الجملة الاعتراضية مسبقا وعن قصد من الكاتب وبدون أى دليل .

وفى صفحة 126 نجد هذه العبارة « يضاف الى ذلك أن محمدا - كما هو معلوم - خلط بين اسمى ماريا ومريم» - ولا يقول الكاتب « كما هو معلوم » عند من بطبيعة الحال .

وفى صفحة 20 نجد هذه الجملة « وسنتحدث عن صياغة محمد للوصايا العشر بين ما نتحدث عنه فى الفصل الثالث» .وهو يلقى فى روع القارىء مسبقا فكرة أن محمدا قد صاغ الوصايا العشر وبالتالى فهو الذى صاغ القرآن الذى ألفه .

وفى صفحة 96 يقول عند الحديث عن مصدر كيفية الصلاة الاسلامية : - « وكان - أى محمد - فى ذلك مقلدا ولا ريب لصورة يهودية مسيحية » - .

فليس لديه « ريب » فى ذلك ، ويريد من القارىء أن يشاركه هذا اليقين رغم أنه يكمل العبارة السابقة باعترافه « بيد أننا لا نستطيع أن نجزم هل هو أخذ الصلوات الثلاث عن صلوات اليهود الثلاث أم عن صلوات الرهبان المسيحيين » ـ .

الاصل الواحد للاديان وغياب المنهج العلمى :

ولعل الفكرة الرئيسية التى تحرك الكاتب هى نفس الفكرة التى يريد أن يقنع بها القراء ، وهى فكرة لم تكن وليدة الاستقراء ولا الاستنباط ، بل كما يتضح من قراءة الكتاب فكرة مسبقة أصلها انكار الرسالة المحمدية واتهام محمد صلى الله عليه وسلم بالكذب والاقتباس .

ولقد كانت هذه الفكرة المسبقة الغير قابلة للشك سببا رئيسيا فى كثير من الاخطاء الجسيمة التى وقع فيها ، وهو يبحث عما اقتبسه محمد من التوراة والانجيل ، فلو كان قد أقام احتمالا ولو ضئيلا لان يكون القرآن بالفعل كتابا منزلا لما تسرع باطلاق صفة الاقتباس على الكثير من الاصول العقائدية التى تشترك فيها جميع الاديان السماوية ، ما دامت كلها من رب واحد ، خاصة وأن الاسلام يعترف بهذه الاديان السماوية السابقة ويحترمها ويجعل الايمان بها شرطا أساسيا فى الايمان به نفسه ، غير أنه مع ذلك قد نبه الى أن النصوص الحالية من التوراة والانجيل يشوبها الكثير من التحريف سواء بالحذف من الكتاب الاصلى أو باضافة ما ليس منه اليه ، أو بتعديل وتغيير عبارات وقصص كاملة .

ومعنى ذلك أن الاسلام لم يقل أبدا أن النصوص الحالية خلو فى كل شىء من الاصول الصحيحة للنصوص الاولى ، بل انه يرى أن هناك أصولا عقائدية لازالت موجودة فى هذه النسخ الحالية وان كان يوجد بجانبها أصولا أخرى قد حرفت أو بدلت .

ولكن د. فلهم رودلف لا يقيم وزنا لذلك الرأى الاسلامى فى الكتب السابقة التى نؤمن بها ، ولذلك فقد وقع فى خطأ الاعتقاد بأنها كانت مصدرا لعدد غير قليل من المعتقدات الاسلامية المذكورة بالقرآن ، فنرى على سبيل المثال أقواله الآتية :

1 ـ فى صفحة 49 يقول : ـ «ينتظم دين محمد اربعة فكرات متتابعة هى البعث فالمحاكمة فالفردوس وجهنم ». ـ يعتقد رودلف أن الرسول قد اقتبس هذه الفكرات من اليهودية والمسيحية ، فيقول فى نفس الصفحة عن المسيحيين :

ـ « ثم تغلبت فكرة البعث العـــام فى الديانة المسيحية على فكرة بعث الصالحين وحدهم ، التى كانت تقول بها مدرسة الاحبار (الحاخامات) القديمة • وقـد اتخذ محمد موقفه فى وضوح على الخط المسيحى » ـ •

2 ـ وعندما يرى مكانة الشهداء فى الاسلام لا يسعـــه الا أن يربط ذلـك بمكانتهم فى المسيحية فيقول فى صفحة 51 : « لم يكن اليهود يجهلون فكـــرة الحياة السعيدة عقب المـوت مباشرة ، ولكن ربط هذه الفكرة بالحرب المقدسة يوجه أفكارنا دون اختيار منا الى المكانة الممتازة التى تحتفـــظ بها الكنيســـة للشهداء ، ومن ثم كان محمد هنا أيضا يضطرب فى تصورات مسيحية » •

3 ـ وفى حديث رودلف عن المحاكمة فى الاسلام يقـــول فى صفحة 52 : « والبعث العام عند محمد متصل بفكرة المحاكمة : ظهور الله ومن ورائه حشد من الملائكة ، فتح الكتاب السمـــاوى ، الوزن بالميزان،وذلك كله قد اشتمل عليه الوصف اليهودى والمسيحى للمحاكمة ، فالناس ينقسمون بحسب انجيل متى 25 الى « الذين عن يمينه » و « الذين عن اليسار » ، كما ينقسمون فى سورة البلد 17 18 الى أصحاب «الميمنة» وأصحاب « المشأمة » •

4 ـ ويقع رودلف فى نفس الخطأ المنهجى عند حديثه عن الجحيم الخالـد فيقول فى صفحة 59 : ـ « ويعلم محمد الناس أن عذاب الجحيم خالد ، وهـو رأى تشاطره فيه اليهودية والمسيحية ، وان تكن كتابات الاحبار الربانيين تستثنى الاسرائليين كلهم أو بعضهم من الخلود فى النار ، وذلك ما تصدى محمـــد فى المدينة لادحاضه بقوة ••• وبذلك يكون قد وقف مرة أخرى الى جانب المسيحية التى لا تعرف استثناء » ـ •

5 ـ وقد وضحنا من قبل رأى رودلف فى أن محمدا قد اقتبس تصور أن فى السماء كتابا يرسل الله اليه منه قطعة اثر قطعة من العهدين القديم والجديـد للتوراة والانجيل •

6 ـ ويعتقد رودلف كذلك أن محمدا قد اقتبس اسم جبريل من المسيحيـة فيقول فى صفحة 69 : ـ « ذكر اســم جبريل أيضا على أنه حامـــل لوحـى القرآن ، أى محل الروح القدس ، وقد بنى محمد تسويته بين الروح وجبريل على قصة عيد البشارة ، حيث بدت الروح لمريم فى صورة بشر كامل • ومن ثـم كان لنا أن نعد هذه التسوية بينهمـا مسيحية النشأة وان كان اليهود أيضا لا يجهلون جبريل معبرا عن الوحى » •

7 ـ وفى معرض حديثه عن الوصايا العشر يعتقد رودلف أن محمدا قد عرفها « ولكنه لم يحافظ على عددها ، ولا على ترتيبها ، كما أن فحوى كل منها لم يبق دائما مطابقا للاصل ، فاذا كان التباين فى العدد والفحوى قد أحدثه محمد عمدا حتى يجعل هذه الوصايا ملائمة للاحوال والملابسات التى تكتنفه، فما من سبب للتغيير فى ترتيبها غير النقص الناتج من النقل الشفوى » ٠

8 ـ وحين يتعرض لاركان الاسلام يشكك كذلك فيها فيقول فى صفحة 91 : « أركان الاسلام هى الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج ، نجد الثلاثة الوسطى واضح فيها أثر اليهودية والمسيحية وضوحا لا مشاحة فيه » ٠ وفى صفحة 94 يقول : ـ « اما السجود فيكاد يكون من المقطوع به أن محمدا شهده عند المسيحيين ، اذ أن اليهود يصلون بوجه عام وهم وقوف ، وعلى خلاف ذلك نجد أن الوضوء الذى أوجبه محمد قبل كل صلاة موجود فى كلا الدينين » ٠

9 ـ وعن طريق الاستنباط الخاطىء يصل فى النهاية الى نتيجة مؤداها ما يقوله فى صفحة 108 من : ـ « ان جذور الاسلام متأصلة فى المسيحية ونابتة منها ٠ أما اليهود فلم تكن منهم الخميرة، ولكن على أية حال كان منهم الجانب الاكبر من الدقيق الذى أضيف اليها فيما بعد » ٠ ـ وفى صفحة 109 يستكمل فيقول : ـ « الافكار والعادات المسيحية القحة التى جاء بها محمد فى الزمن المكى الاول ـ فكرة البعث العام لجميع البشر والمحكمة العامة ودوام العذاب فى النار وتصور وجود كتاب فى السماء يضاف الى ذلك صلاة التهجد وربما كذلك فكرة التنزيل وكل ما ادخل فى الاسلام من أشياء مسيحية غير ما تقدم فهى ترجع الى العصر المكى المتأخر مثل فكرة أمر ـ روح ـ ومثل قصص الانبياء أو العصر المدنى مثل ايثار الشهداء وحمل جبريل للوحى والشهادة والصيام » ٠

ورودلف كما سبق ولاحظنا لا يمنح نفسه الفرصة أبدا لكى يفرض على سبيل الجدل أو تمسكا بالمنهجية العلمية أن يكون أصل الاديان الثلاثة كلها واحدا بما فيها الدين الاسلامى ، وأن هذا التشابه مرده الى الاصل الواحد وليس الى الاقتباس بعضها من الآخر ، اذ أن منطق الاقتباس الذى انتهجه رودلف يمكن أن يوجه الى المسيحية ، ويمكن أن يقال أن المسيح قد اقتبس الكثير جديدا من اليهودية ، وهو الشىء الذى يبدو ان رودلف لم يفكر فيه اطلاقا ٠

ونحن لا نعجب كثيرا مما يعتبره رودلف اقتباسات بناء على رايه المسبق

الراسخ ، فان ادعـــاءه بأن ما سبـق اقتباسات لا يخالف المنطق فى شىء ، ولا يعتبر فى نفس الوقت برهانا علميا على أن الرسول قد اقتبس بالفعـــل ، ومهما اجتهد رودلف فى اكتشاف أصول مشتركة بين الديانات الثلاث فلن يثير لدينا ذرة استغراب ، وهل يمكـن أن نستغرب أن يكون موجودا بمزامـــير داوود عبارة « اهدنى فى سبيل مستقيم » أو « الصديقون يرثون الارض » ـ مع ملاحظة أن القرآن نفسه قد أقر بوجودها فى الزبور اذ تقول الآية الكريمـــة : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون** » ٠

كما أننا لا ننكر أن يكون بالمزامير « السموات تحدث بمجد الله والفلـك يخبر بعمل يديه » أو « ان كنت تراقب الآثام يا رب يا سيد فمـــن يقف » أو « اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يبصرون ، لهم آذان ولا يسمعون » أو « اصنامهم فضة وذهب عمل أيدى الناس ، لها أفـواه ولا تتكلم ، لها أعين ولا تبصر ، لهـا آذان ولا تسمع ، لها مناخر ولا تشم ، لها أيد ولا تلمس ، لها أرجل ولا تمشى ، ولا تنطق بحناجرها » ٠

ونفس الشىء يقال عن المزامير التى تذكر صفات الله مثل « انه لا ينعس ولا ينام حافظ اسرائيل » مع ملاحظة أن الآية القرآنية « **لا تأخذه سنة ولا نوم** » يفهم منها أن الله هو حافظ كل الكون وليس شعبا واحدا هـــو شعب اسرائيل كما تصرح التوراة ٠

وكل ذلك يقال أيضا عن عبارات فى المزامير مثل « الرب يستهزىء بهم » أو « الاخ لن يفدى الانسان فداء » الـتى يبدو فيها تشابها من نوع ما مع آيات قرآنية ، ومثل ذلك فى قـــول لوقا : « انزل الاعزاء عـــن الكراسى ورفـع المستضعفين» وقول أشعيا عن الله : «أنا الاول وأنا الآخر » ٠ فمثل هذه الاوصاف لله سبحانه وتعالى ولا يعقل أن تتبدل أو تتغير بتغير المرسلين أو تقدم الزمان ٠

كما أن الله قد أخبرنا ببعض مما فى التوراة مثل : « **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعـين بالعين والانف بالانـف والاذن بالاذن والسـن بالسن والجـروح قصاص** » ٠ ـ ولا يعتبـــر رودلف وجود هذه النصوص بالفعل فى التوراة دليل اعجاز لهذا النبى الامى بل يعتبره ذليل اقتباس خاصة بعد أن ادعى أنه لم يكن أميا فى موضع سابق ٠

وتمشيا مـــع نفس المنهج يقول فى صفحة 23 ان « لفظ الشهادة لا اله الا الله » يتفق تماما مع « هكذا يقول الرب ملك اسرائيل وفاديه رب الجنود ، أنـا

الاول وأنا الآخر ولا اله غيرى » اشعيا 44 ، ومع « انا الرب وليس آ خر ، ولا اله سواى » اشعيا 45 ٠

ومن العهد الجديد يرى رودلف أن محمدا قد أخذ وصف الجنة ــ صفحة 24 ــ ووصف النار ــ صفحة 28 ــ وتقبيح الرباء فى الصلاة ــ صفحة 23 ــ ووصف القلوب التى عليها أكنة ــ صفحة 25 ــ وكذلك الآية « **ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله** » التى يقول عنها رودلف : « أنها تذكرنا بحكاية يعقوب » ــ هكذا فقط دون أى توضيح ودون أن يورد أى نص ٠

وبنفس طريقة الاستنباط الخاطىء يأخذ محمد ــ فى رأى رودلف ــ فكرة الطيور المسخرة فى الجو والجبال التى تزول بالايمان والانسان الذى يحصد ما يزرع ٠٠ الى آخره ٠

الاندفاع الى درجة التهافت

لقد رأينا فيما سبق كيف أن المؤلف كان مندفعا فى المقارنة والمقاربة بين المتشابهات فى القرآن الكريم والكتب السابقة بناء على فكرة انكار الرسالة المحمدية ، مما جعله مطمئنا الى اعتبار هذه الاصول المشتركة للديانات دليل اقتباس الرسول لها من التوراة والانجيل

ولكن على ما يبدو فقد كان اندفاعه أكثر بكثير من أن يستطيع التحكم فيه أو فى مساره ٠

ذلك أنه ما لبث أن اجتزأ عبارات من القرآن ، واجتزأ عبارات من التوراة والانجيل كل منهما فى سياق مختلف غالبا ، واعتبر تشابهما أيضا اقتباسا ٠

ومعلوم أن القرآن لا يفصل جملة جملة ، والتوراة لا تفصل جملة جملة ، وأن هذا الفصل للجملة من سياقها أسلوب غير صحيح فى المقابلة مع جملة أخرى ، لان هذا التجزىء يضر أيما ضرر بالمعنى ولان كل آية كانت تنزل فى أسباب وشروط وظروف محددة ٠

كما أنه من المعلوم أيضا أن التوراة والاناجيل الحالية ليست سوى ترجمات للاصول اللاتينية والسريانية ، ولم تكن هذه الترجمات موجودة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أن الترجمة تتصرف بطبيعتها فى الالفاظ بشكل واسع حتى أنه قد قيل اذا كان لدينا نص واحد ثم ترجمه تسعة رجال فقد أصبح لدينا فى الحقيقة عشرة نصوص ٠

وعلى هذا فان التشابه فى الالفاظ الذى قد يجىء عرضا بين القرآن والنسخ الحالية لا يعنى تشابه هذه الالفاظ حتما

مع الاصول التى ترجمت هذه النسخ عنها ·

ومع ذلك فقد كان اندفاع رودلف وتسرعه سببا فى تنكبه الطريق العلمى ، حتى أنه اعتبر أشياء لا تمت الى بعضها بصلة اقتباسا ·

1 ـ ففى صفحة 21 يقول أن الآية التى تصف الجنة « **وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى** » · ربما كانت متأثرة بالارض التى تفيض لبنا وعسلا ·

2 ـ وفى صفحة 22 يقول («تذكرنا» الصورة التى وردت للوم والتانيب فى الآية 12 من سورة الحجرات « **ياكل لحم اخيه ميتا** » بالكال كارس) · ولكنه لا يستطيع أن يثبت اقتباسها فيقول : « ولكنها ليست مقتبسة عنها » ·

3 ـ وفى صفحة 30 نموذج آخر صارخ ومثير للسخرية اذ يقول أن الآية الكريمة « **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ، انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم الم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور** » · مقتبسه من انجيل : « حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذت مصابيحهن وخرجن للقاء العريس · وكان خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات · أما الجاهلات فاخذت مصابيحهن ولم ياخذن معهن زيتا فى آنيتهن مع مصابيحهن وفيما أبطأ العريس نعسن جميعا ونمن · ففى نصف الليل صار صراخ هوذا العريس مقبل فاخرجن للقائه ، فقامت جميع العذارى وأصلحن مصابيحهن ، فقالت الجاهلات للحكيمات اعطيننا من زيتكن فان مصابيحنا تنطفىء فأجابت الحكيمات قائلات لعله لا يكفى لنا ولكن بل اذهبن الى الباعة وابتعن لكن ، وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدات دخلن معه وأغلق الباب ، اخيرا جاءت بقية العذارى ايضا قائلات يا سيد افتح لنا ، فاجاب وقال : الحق أقول لكن أنى ما اعرفكن » ·

4 ـ ويصل الكاتب الى ذروة اللامعقولية فى صفحتى 16 و 17 حين يرهف السمع ليكتشف أن الرنين فى النص القرآنى مقتبس من الرنين فى النصوص المترجمة للتوراة ، وكان المترجم حين ترجمها ترجم ايضا موسيقاها مع التاكيد على أن هذه الترجمات كلها متاخرة عن عصر النبى · وهو يكتفى بان يقول أن سورة يونس مثلا تشبه فى

الرنين مزامير 13 ، وسورة كذا تشبه مزامير كذا ـ وهكذا دون أن يذكر الكلمات التى تسببت فى هذا الرنين فى أى من القرآن أو التوراة · وللقارىء أن يحكم على هذا الهذيان بما يشاء ، وله أن يطمئن الى نزاهة صاحبه بدون تحفظ بعد ذلك ·

5 ـ ولكى يسهل ابتلاع هذه الاقتباسات الواهية فانه كثيرا ما يجتزىء الكلمات كما قلنا كان يقول فى صفحة 19 : ـ « ··· كشجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين ··· كشجرة خبيثة » مقتبسة من « فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه ، التى تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل » ـ دون أن يحدد من هو الذى يكون كشجرة مغروسة ومن هى التى أو من هو الذى كشجرة طيبة ·

وفاتته أشياء :

لقد كان رودلف كما نرى مندفعا فى اتجاه واحد ، هو محاولة النيل من هذا النبى وفاته فى اندفاعه الموجه أن يلاحظ ما تحتويه بضاعة الرجل من نفائس وآيات ، رغم تعرضه لها ومده يده اليها ··· ومن هذه اللائى ما يلى : ـ

1 ـ ذكر فى صفحة 23 أن محمدا قد اقتبس « **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون** » و « **واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس** » من انجيل متى : « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين » ويقول ردولف : ـ « ولكن محمدا يتجه اتجاها يختلف عن اتجاه موعظة الجبل ، لاحظ كلمة ساهون وكسالى » · ـ دون أن ينتبه الى دلالة هذا الاتجاه والنضج التحليلى لظاهرة المرائين ·

2 ـ وهو حين يلاحظ قول القرآن : « **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الأنجيل كزرع اخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع** » يقول فى صفحة 33 : « ولكننا لم يتسن لنا ان نعرف الموضع الذى يشير اليه فى التوراة » · دون أن يفكر لحظة فى امكانية أن يكون ذلك دليلا على صحة ما قاله محمد فى موضع آخر من وقوع الحذف والتبديل والتغيير فى التوراة والانجيل ·

رغم أنه يعترف عرضا بوجود التحريف فى التوراة والانجيل فى صفحة 48 اذ يقول : « ولا عجب فى ذلك فان العهد الجديد أقل ما يكون أصالة فيما يتصل بالعقائد الاخروية ، كما أن التصورات اليهودية قد تسربت الى العقائد الاخروية المسيحية فى طور متأخر بعض الشىء ، واذا كان الامر كذلك فى الكنيسة الكبرى ، فكيف به فى الشيع

الشرقية » • ـ وفى صفحة 49 لا ينتبه الى الاعتراف بالتغيير والتحريف فى قوله : ـ « أما اليهودية المتاخرة والمسيحية فنجد فيهما فكرة البعث العام وفكرة بعث الصالحين وحدهم تسيران متوازيتين جنبا الى جنب ، ثم تغلبت فكرة البعث العام فى الديانة المسيحية على فكرة بعث الصالحين وحدهم » •

3 ـ وحين شهد رودلف للرسول بالعالمية ، يفوته أن يسأل عن سر هذا الشمول فى دعوته ، رغم أنه يقول فى صفحة 73 : ـ « ومن الخطا أن يقال أن محمدا قد تدرج من المحلية الى العالمية فكان يعد نفسه فى أول الامر مبعوثا لعشيرته ثم لشعبه العربى ثم للناس كافة ، فقد كان محمد من أول الامر يفكر تفكيرا عالميا » •

4 ـ وحين يمر على روعة وتنزيه محمد لله يفوته أن يسأل عن سر ذلك ويكتفى بالقول فى صفحة 90 : ـ « ولكنه ـ أى محمد ـ لم يستطع أن يختار السبت أو الاحد ، لا يختار السبت لنفوره مما زعمه الكتاب المقدس من أن الله استراح من عمله فى اليوم السابع ، وهو ما يتنافى تنافيا تاما وفكرته عن الله » ـ • دون أن يسأل عن مصدر هذه الفكرة النزيهة لدى محمد • وفى صفحة 91 يقول : ـ «أوجب ـ يقصد محمدا ـ على المسلمين معارضا اليهود والمسيحيين ، أن يخفوا عقب الصلاة الى مزاولة ما كانوا فيه من أعمال » ـ ويفوته أيضا هنا أن يلاحظ ذلك التقرير العظيم للعمل ، ويكتفى بأن يفسر هذا الموقف بانه معارضة لليهود والمسيحيين لا أكثر ولا أقل •

5 ـ فى صفحة 97 يعترض رودلف على أن للمسلمين قبلة فيقول : ـ « ان مثل هذه القبلة لا تتلاءم وفكرته ـ أى محمد ـ عن الله (**ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله**) » • متجاهلا اعترافه فى نفس الصفحة بأن اليهود والمسيحيين دائما كان ـ ولا يزال ـ لهم قبلتهم ، ويفوته أن يلاحظ أن لاله محمد المشرق والمغرب وهى فكرة سامية للاله ، ويتجاهل أن المسلمين لا يرون أى تعارض بين اتجاههم للقبلة وقت العبادة، وبين ايمانهم بالاله الذى له المشرق والمغرب فى كل وقت •

6 ـ ويفوت رودلف كذلك أن يلاحظ انسانية الدين الاسلامى فى اباحة انتهاك الاطعمة المحرمة فى حالة الاضطرار بالجوع وخلافه • وهذه الاباحة ليست واردة فى الكتب السابقة باعتراف رودلف نفسه فى صفحة 106 اذ يقول : ـ « واذا كان محمد قد الحق بهذا التحريم أن من اضطره الجوع ، مع حسن نيته ، الى أن

ينتهك حرمة هذا التحريم فلا جناح عليه فاغلب الظن أن هذا التيسير غير منتحل».

7 ـ وفاته اجتلاء ما فى الاسلام من عدالة ازاء ذنوب البشر رغم اعترافه فى فى صفحة 113 : ـ « ان القرآن خلو من أى شىء عن وراثة الذنوب وعن الخلاص وهما من الامور الجوهرية فى المسيحية » ـ ورغم ذكره لآيات قرآنية فى صفحة 114 مثل : «**ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** » • ويلاحظ رودلف أن هذه الآيات تعنى « انكارا لتحمل المسيح الآلام بدل البشر » • ـ ولكنه لا ينتبه الى أن هذا المبدأ الاسلامى أكثر عدلا وأكثر معقولية بكثير من فكرة تحمل المسيح لآلام المذنبين من أتباعه •

8 ـ وفى صفحة 52 يقول : « على أن اغفاله للبعثات الدينية اليهودية اغفالا تاما لم ينجم عن حصوله على العناصر عن طريق المسيحية بقدر ما نجم عن انبرائه للذياد عن وحدة الله اذ أن عيسى أيضا الذى يعمل فى المسيحية كقاضى الى جانب الله ، لم يرد ذكره فى هذا الشأن البتة فالله وحده هو قاضى العالم » ـ ويفوت رودلف أيضا أن يلاحظ ما فى هذه الشهادة من اقرار بصفاء فكرة التوحيد فى الاسلام ونزاهة التصور الاسلامى لله ولحكمه وقدرته ، رغم أنه يعود اليها دون جدوى فى صفحة 140 فيقول : ـ « ومهما يكن من أمر فعلى المرء أن لا يبحث عند محمد عن شىء يشبه المحاكمة العالمية عند عيسى • ففى ذلك معارضة لانفراد الله بالسيادة ، الله الذى « **لم يكن له شريك فى الملك** » ـ » • ـ ويقول أيضا فى نفس الصفحة : ـ « وبوجه عام ، فمع عظم ما اعتقده محمد تحت تأثير المسيحيين فى عيسى فقد كان دائما يرقب فى حمية أن لا يتطرق من جراء ذلك صدع الى وحدانية الله » •

9 ـ وفاته أيضا أن يلاحظ نقاء الفكرة الاسلامية عن الملائكة رغم مروره عليها فى صفحة 129 التى يقول فيها : ـ « بيد أن محمدا ، لم ير أن يكون جبريل هو الذى انتج عيسى ، اذ كان من العسير عليه أن يوفق بين مباشرة الملائكة للوظائف الجسدية مع الناس وبين آرائه عن الملائكة » •

10 ـ وفى ما أسماه بالاقتباسات لم يلاحظ الفروق التى تجعل النص القرآنى أكثر علمية ومعقولية : ـ

أ ـ فهو لا يلاحظ فى صفحة 16 أن النص المسيحى « الشمس تعرف مغربها تجعل ظلمة فيصير ليل » يحمل معنى أن حركة الشمس هى سبب الليل وهذا ما يتناقض مع العلم ، وهذا ما لا تجده

فى النص القرآنى• وقد ألفت كتب كثيرة فى هذا الشأن ولعل من أهمها كتاب موريس بكاى « التوراة والقرآن والعلم » الذى أثبت فيه تهافت نصوص التوراة الحالية وصحة النصوص القرآنية فى ضوء العلم المعاصر •

ب ـ وفى صفحة 28 يقول رودلف من انجيل متى : ـ « احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم والا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات » • ـ وهذا النص يحرم المجاهر بصدقته من اى أجر فى الآخرة وليس هذا عدلا ، خاصة أن الجهر بالصدقة قد يفيد فى اشاعة الخير عن طريق الاقتداء لذلك قال النص القرآنى : **« ان تبدوا الصدقات فنعما هى وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم »**• ـ فالاخفاء مفضل على الجهر ، ولكن للمجاهر أجرا لا خلاف فيه وان كان أقل من المخفى لها ، وهذا الفرق يتماشى تماما مع العدل الالهى وحكمة الاقتداء الاجتماعى •

ج ـ ويفوته فى صفحة 26 أن يلاحظ فى النص الانجيلى « وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » ـ أن الثراء فى حد ذاته كافيا لمنع صاحبه من الدخول الى الملكوت ، بينما الثراء فى حد ذاته ليس ذنبا ، وفى الاسلام لا يذنب الثرى الا اذا كان مصدر ثرائه غير مشروع أو ارتبط الثراء بالاستغلال أو البخل أو التعطيل عن المشاركة فى الحياة بالكنز والاخفاء •

اعترافات المؤلف :

يعود المؤلف فى صفحة 33 فينفى صفة الاقتباس عن الكثير مما اسماه بالمقتبسات فيقول : ـ « فان الكثير منها ـ أى المقتبسات ـ مثل رقم 1 ، 3 ، 19 ، 23 ، 25 من العهد القديم لا تستحق أن تسمى مقتبسات » • ـ ولا غرو فى هذا التردد فان الكاتب يعترف فى أكثر من موضع بالكتاب بقلة أو انعدام معلوماته التى يبنى عليها أحكامه المختلفة • ونجد أمثلة ذلك فيما يلى : ـ

1 ـ فى صفحة 7 فرض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا الطريق على نحو ما الى مكة ، وان لم يكن ثم ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون فى عهد محمد » •

2 ـ وفى نفس الصفحة : « ومن المهم أن نتبين : أكان العرب الجاهليون قبل محمد يعرفون من الافكار اليهودية ـ المسيحية أكثر مما كنا نظن حتى الآن• الا أنا لنجد انفسنا ، لسوء الحظ ، واقفين فى هذا المجال على أرض متمورة » •

3 ـ وفى نفس الصفحة : ـ « ومن المهم الآن أن نعرف مدى ثقافة أولئك اليهود والمسيحيين العرب وحظهم من العلم والمعرفة ، بيد أنا لا نجد معينا ننقع منه غلتنا » .

4 ـ وفى صفحة 10 : ـ « وليست لدينا معلومات كافية عن العلاقات فيما بين هؤلاء الهراطقة » ـ يقصد العرب المسيحيين .

5 ـ فى صفحة 12 : ـ « وليس فى وسعنا ـ وقد غاب جميع الشهود ـ أن نجيب عن السؤال : هل كان لدى اليهود والمسيحيين العرب المعاصرين لمحمد كتب مقدسة أم كانوا يعتمدون على النقل والسماع » .

6 ـ وفى صفحة 43 يقول عن ورقة ابن نوفل : « فليس من المقطوع به هل كان قبل دخوله المسيحية حنيفا أم يهوديا » ـ وبعد أن يفشل فى البحث عما يمكن أن يثبت أن محمدا تعلم على يد أحد معين يقول فى صفحة 44 : « ومن ثم فلنتخل عن محاولة ذكر اسم معلم محمد » .

7 ـ وفى صفحة 46 يقول : ـ « واذا تساءلنا كيف كانت كل من اليهودية والمسيحية تحد من نفوذ الاخرى على محمد، ألفينا أن الملابسات والاحوال التى كانت تكتنف المسيحية العربية تجعل الاجابة عن ذلك عسيرة » .

8 ـ وهو يعترف بعدم استطاعته اتباع منهج البحث التاريخى فى صفحة 47 فيقول : ـ « يقتضينا منهج البحث التاريخى أن نكشف عن المؤثر الذى تأثر به محمد. ذلك أمر غير ميسور » .

9 ـ وفى صفحة 85 يقول أنه لا يستطيع الجزم فى كيفية وصول الوصايا العشر الى الرسول فيقول : ـ « وليس فى مكنتنا ان نقطع هل حدث ايصال هذه الوصايا اليه عن سبيل يهودى أو مسيحى » .

10 ـ وفى صفحة 96 يبنى حكما لا ريب فيه مقتضاه أن محمدا أخذ صورة الصلاة الاسلامية تقليدا لصورة يهودية ـ مسيحية ، ولكنه يكمل ذلك بقوله : ـ « بيد أننا لا نستطيع أن نجزم هل هو أخذ الصلوات الثلاث عن صلوات اليهود الثلاث أم عن الصلوات التى يقيمها الرهبان المسيحيون (كل صباح وظهر ومساء) » .

11 ـ وفى صفحتى 113 ، 114 لم يلتفت مثلا الى فكرة العدل الثاقبة فى خلو القرآن من أى شىء عن وراثة الذنوب رغم اعترافه فيهما بقوله : ـ « ولكنا لا ندرى أكان للتعاليم الخاصة بهما ـ أى وراثة الذنوب والخلاص ـ ،

على عظم شأنهما فى المسيحية ، أى شأن عند الشيع المسيحية الشرقية ؟ واذا كان الامر كذلك فمن يدرينا أن محمدا قد أحاط بهما خبرا ؟ » ٠

اكم من المغالطات والاخطاء :

وقد كان الموقف المسبق الذى تحدثنا عنه الى جانب نقص وانعدام المعلومات الضرورية للكاتب سببا فى ظهور المغالطات والاخطاء كسمة بارزة بطول الكتاب وعرضه ، ونعدد منها بالاضافة الى ما سبق ما يلى : ـ

1 ـ فى حديثه عن عام الفيل يؤرخه بعام 525 م٠ بينما التاريخ الصحيح هو 570 م٠ (انظر كتاب حياة محمد لمحمد حسين هيكل صفحة 118) ـ يتحدث رودلف فى صفحة 6 فيقول : « ولكن الهزيمة حاقت بها فعادت أدراجها وأفل نجم المسيحية فى جنوب البلاد العربية على صورة ما » ٠ وهو لا يحلل أسباب هذه الهزيمة التى حاقت بها لانها دليل العناية السماوية بتلك الكعبة التى انكر فى صفحة 78 أن يكون ابراهيم واسماعيل قد بنياها ، ولكن المغالطة أكثر وضوحا فى اعتباره أن أسباب هذه الحملة كانت دينية ، فمما لا شك فيه أن الهدف من حملة الفيل لم يكن نشر المسيحية، ولكنه كان نقل المركز التجارى والاقتصادى من مكة الى اليمن ، حتى أن ابرهة الاشرم المسيحىقد بنى بيتا مزخرفا باليمن ليصرف الوثنيين العرب اليه بدل الكعبة ، ولو كان هدفه دينيا لما بنى هذا البيت لهم ولدعاهم مباشرة الى اتباع دينه ٠

ورودلف يقرر فى نفس الصفحة وبنفس الطريقة أنه « لو لم يظهر الاسلام فى تلك الفترة لاصبح شمال البلاد العربية كله مسيحيا فى وقت قصير » ٠ ـ دون أن يعطى سببا واحدا لعدم حدوث ذلك طيلة ما يربو على ستة قرون قبل البعثة المحمدية ٠

2 ـ ويتحدث رودلف كذلك عن اليهود الذين علموا محمدا كما لو كانوا جهلاء ليكون محمدا ـ الوثنى ! ! ـ أكثر جهلا منهم فيقول فى صفحة 8 : ـ « ومع ذلك لقد كان أولئك اليهود على شدة جهلهم متفوقين فى العلم على من يحيط بهم من الوثنيين ومن بينهم محمد » ٠ ـ وما ورد عن اليهود بالجزيرة يؤكد أنهم كانوا أصحاب علم وكتاب لم يتوانوا عن مباهاة الوثنيين به ، ولكن الغرابة التى نسجلها على رودلف هو أنه بعد أن اثبت هنا ما يعتقده من قلة علم الرسول اثبت فى نفس الصفحة أن الرسول كان يعلم جهل هؤلاء اليهود ـ وهو تلميذهم فى رأى رودلف ـ فقال فى القرآن : ـ « **ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب**

الا أماني » ـ فهل يستقيم أن يكون لدى محمد من العلم ما يميز به اساتذته ، فيحكم عليهم بالجهل ، الا أن يكون لديه مصدر آخر للمعرفة .

3 ـ وفي صفحة 9 يفهم رودلف الآية القرآنية « **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** » على أن اليهود كانوا يشعرون بأنهم اسمى من محمد ، وذلك جهل أو خطأ أو مغالطة ، فالله سبحانه قد فضل بنى اسرائيل بالرسالة على العالمين واختارهم للرسالة ، وهذا هو التفضيل الذى نفهمه نحن المسلمون لبنى اسرائيل الاوائل ، ولا يعنى ذلك بحال تفضيل عرقى أو عنصرى لان الناس فى الاسلام سواسية كلهم لآدم وآدم من تراب ومقياس التفضيل الوحيد هو التقوى وليس العرق .

4 ـ وفى صفحة 9 كذلك يقول رودلف عن دعوى شعب الله المختار : « وهى دعوى تقبلها محمد نفسه فى بادىء الامر حتى اذا ما تغير موقفه من اليهود حمل عليهم حملات شعواء » . وهذه مغالطة تاريخية صريحة فلم يغير الرسول موقفه من يهود بل هم الذين غيروا موقفهم منه ونقضوا الصلح معه بعدما استقبلوا وصوله المدينة أحسن استقبال ليستميلوه اليهم ، ويتخذوه حليفا لهم للدفاع عن الجزيرة العربية ضد النصرانية التى لا يعترفون بها بعد أن أجلتهم عن أرض المعاد بفلسطين . فلما تبين لهم أن محمدا لن يطاوعهم فى ذلك نقضوا حلفهم معه ، وتحالفوا مع الوثنيين ضده ، حتى أن قريشا قالت لوفد اليهود الذى جاء يعرض عليها الحلف ضد محمد ـ وكان فيه حى بن أخطب وسلام ابن ابى الحقيق وكنانة بن أبى الحقيق ونفر من بنى وائل هوذة بن قيس وأبو عمار ـ سألتهم قريش : يا معشر يهود ، انكم أهل الكتاب الاول وأهل العلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالت اليهود : « بل دينكم خير من دينه وانتم أولى بالحق منه » . والقصة مذكورة بالقرآن الكريم ـ فقد وقف اليهود الموحدين مع المشركين ضد التوحيد الذى جاء به الاسلام . وبعد ذلك يدعى رودلف أن موقف محمد هو الذى تغير ؟!

5 ـ وفى صفحة 10 يرى رودلف أن كلمة نصارى بالقرآن هى « نسبة الى الناصرة ليدل على صلتهم باليهود وكونهم ليس سوى شيعة من الشيع » . بينما النصارى منسوبة الى الناصرى أى الى المسيح فهى كلمة تفيد صلتهم بالمسيح الناصرى وليس باليهود كما يستنبط رودلف .

6 ـ وفى صفحة 10 يقر رودلف أن محمدا كان على علم بانقسام المسيحيين فيما بينهم شيعا دون أن يبحث أو يشير الى مصدر هذا العلم ، وحين يتحدث عن علم الرسول بالرهبانية يقول : « محمد كان على علم بـ (الرهبانية) » · كأنــه علم الممارسة ، فى حين انه صلى الله عليه وسلم كان يعلم بوجودها ولكنه لم يكن راهبا بحال ولم يثبت انه استخدم طرق الرهبان فى دعوته ، بل كان صريحا فى موقفه ضد الرهبانية ، وتأكد فى القرآن أنه ما هو بقول كاهن ·

7 ـ ومن المغالطات الواضحة كذلك اعتبار رودلف فى صفحة 12 أن آيــة المصباح فى سورة النور يمكن أن يكون المصباح فيها هــو مصباح المتعبدين · والآية تصف المصباح أقرب ما يكون الى المصباح الكهربائى ، وليس الى مصباح الزيت والشحم ، فرغم ذكـر الزيت فى الآية الا أن وصف المشكاة التى فيــها مصباح فى زجاجة والزجاجة كوكـب درى يكاد زيتها يضيء « **ولو لم تمسسه نار** » · وهذا ما لاحظه الدكتور صبحى الصالح فى نقاش لــه عــلى التليفزيون اللبنانى ·

8 ـ وحين يتحدث عن قصة طالوت (شاوول) وجالـوت يعتقـد الخطـأ فى النص القرآنى لان التوراة تتحدث عن جدعون بدل شاوول ، ولا يشك لحظة فى أن يكون الخطأ ـ ان كان هناك خطأ ـ فى النص التوراتى المحرف · ونقول ان كان هناك خطأ لاحتمال ان تكون قصة جدعون هذه قصة أخرى لا تمـــت الى قصة شاوول بصلة ·

9 ـ وهو يعتبر أن محمدا قد خطـــأ حين وصف مريم أم عيسى على انها اخت هارون أخو موسى فى زمان بعيد ، لان هارون وموسى كان لهما أخت تسمـى مريم أيضا ، ولم يكن رودلف ليقع فـى هذا الخطأ لو تذكر مبدأ الاخوة الاسلامى الشهير « انما المؤمنون اخوة » و « المسلم أخو المسلم » ·· فقد اطلق القرآن على مريم حارسة المعبد وصف اخت هارون الذى كان هــو أيضا حارسا للمعبد ، وذلك طبيعى جدا من وجهة نظر المفهوم الاسلامى ·

10 ـ يفهم المؤلف فى صفحة 36 أن محمدا اعتبر هامان وزير ملـك فارس هـو نفسه وزير فرعون ، وهذا فهـم خاطىء ، لان هامان فرعون غـير هامان الملـك الفارسى ، ويؤيدنا فى ذلـك أن رودلف يظـــن أن الصرح المذكور فى القرآن هو نفسه برج بابل ، والمعروف أن برج بابل قد بنى بعد الطوفان فى زمان سابق بكثـير عـلى زمان فرعـون وهامان وموسى · ويكفى أن نطلع عـلى

الوصف الذى نقلـه رودلف من التوراة الحالية فى صفحة 36 لنعـرف تفاهـة التصور التوراتى للالـه فى هذا النص الذى يجعل الاله غيورا دون حق ويكيد للناس عن غير حق ويمنع العمران عـن غير حق ويشتت الناس عن غير حـق ، ويقول النص : « وكانت الارض كلهـا لسانا واحدا ، وقالوا هلم نبن لانفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الارض ، فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان آدم يبنونها • وقال الرب هو ذا شعب واحـد ولسان واحـد لجميعهم ، وهذا ابتداؤهم بالعمل • والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه • هـلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ، فبددهم الرب من هناك على وجه كل الارض ، فكفوا عـن بنيان المدينة ، لذلك دعى اسمها بابـل لان الرب بلبل لسان كل الارض ، ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الارض» •

11 ـ ومن المغالطات الغريبة كذلك ادعاء رودلف فى صفحة 37 أن محمدا وضـع قارون خطـأ فـى بلاط فرعون مستشهدا بالآيـة القرآنية : « **وقارون وفرعـون وهامان ولقـد جاءهم مـوسى بالبينات فاستكبروا** » ـ فالآيـة لا تعنى كما هو واضح أكثر من أن قارون كان فى زمن فرعون ، ولا ندرى من أين أتى رودلف بهذا الادعاء الغريب •

12 ـ وحـين يسرد القـرآن أسماء الانبياء والرسل جنبا الى جنـب يعتقد رودلف فى صفحة 37 أن ذلك خلطا من محمد بين أنبياء العهـد القديم وأنبياء العهد الجـديد مـع أن تقسيم اليهـود والمسيحيين الزمان الى عهـدين قـديم وجديد غير ملزم اطلاقا للمسلمين ، وأن ذكـر الانبياء والرسل جنبا الى جنب يتماشى تماما مع الاعتراف العام بهم على أنهم اخـوة فى الايمان أرسلهم الله الواحد • ومن الطبيعى أن يذكرهم الله بهذا الشكل فى القرآن لانه لا يفـرق سبحانه بين عهد قديم وعهد جديد تعارف عليهما البشر يهودا أو مسيحيين •

13 ـ ونفـس الاستنتاج الخاطـىء نجده مرة أخرى فى صفحة 39 حـين يظن أن فى قصة البقـرة المذكورة فى سورة البقرة بالقرآن خلطا بـين أمرين من أوامر التوراة هما : 1) الامر باتخاذ رماد بقـرة حمـراء مـادة للتطهـير • 2) التكفير عن جريمة القتل التى تقترفها أيد مجهولة بفرس ـ أى دق ـ رقبـة عجلة • ونحن نرى أن لا هذا ولا ذاك ذو صلة بالقصة التى نظن أنها ربمـا تكون قد حذفت من التوراة لما تشتمل عليه من اشارة الى لـؤم وجدل وعند

اليهود • فقصة البقرة فى القرآن لا صلة لها بموضوع الطهارة عند اليهود ، كما أن البقرة فى القرآن قد تسببت فى نطق القتيل واخباره عمن قتله ، ولكن فى الامر الثانى الذى ذكره رودلف وهو « التكفير عن جريمة قتل » يظل قاتلها مجهولا الى الابد •

14 ـ ثم يخطىء المؤلف خطأ جسيما حين يتعرض فى صفحة 67 للآية الكريمة « **رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من امره على من يشاء من عباده** » • فيقول : « هنا تتراءى فى جلاء سلسلة اشتقاقات الله ـ أمر ـ روح ، وهذه السلسلة تطابق مطابقة تامة تعاليم الثالوث المتدرج الذى تنبثق فيه الكلمة من الله والروح من الكلمة » ـ رغم أنه يعترف أن محمدا قد حارب التثليث فيقول فى نفس الصفحة : « ذلك الثالوث الذى كافحه محمد فيما بعد بسبب سوء فهمه له بعد أن كان قد اقترب منه كثيرا » • فالرسول قد كافح الثالوث فى رأى رودلف بسبب سوء فهمه ، ولو كان قد فهمه جيدا لما كافحه ، ويتناسى رودلف رأيه فى أن محمدا كان يرقب فى حمية أن لا يتطرق أبدا الى صدع الى وحدانية الله المنفرد بالسيادة والملك •

15 ـ ويجهد المؤلف نفسه فى البحث عن الاصول الآرامية او العبرية لكلمات كثيرة ذكرت فى القرآن مثل : الله السموات والارض ـ الرحمن ، وغيرها فى الصفحات 6 ، 58 ، 63 ، 91 ، 101 متجاهلا فى هذا الالحاح أن الآرامية احدى اللغات السامية التى ساهمت بدور كبير فى نشوء العربية والعبرية ، ولا يستغرب لذلك وجود هذه الكلمات فى البيئة العربية قبل الرسالة ، ولا يشكل وجودها دليلا علميا على اقتباس النبى لها من جهات أخرى •

16 ـ لقد كان فى مقدور رودلف أن يتجنب كل هذه الاخطاء لو حاول تفسير ما وصل اليه فى صفحة 47 من أن « الدوافع الاولى لتنبؤ محمد لم تكن اجتماعية أو سياسية بل دينية » ، وما وصل اليه رودلف فى هذه العبارة حقيقة ثابتة من سيرة الرسول من أول دعوته الى يوم موته • ذلك الرسول الحريص على المؤمنين ، المتواضع لهم ، العامل بيده معهم ، الفريد فى اخلاقه بشهادة الاعداء والاخلاء •

لقد كان طبيعيا ومنطقيا أن تنتهى حياة رجل تلك هى سيرته دون أن يكون فى حوزته سوى سبعة دنانير ، تصدق بها وهو على فراش الموت قائلا « ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه » • ولكن رودلف لم يقف طويلا عند هذه الحقيقة التى وصل اليها •• ولم يسأل

عن دوافع أساتذته المجهولين الى تعليمه وتزويده بكل هذه المعلومات ، لماذا لـم يدعوا هـم النبوة ؟·· لماذا لـم يدعوا محمدا الى اتباع اديانهم أيا كانت يهودية أو مسيحية ؟·· ما الفائدة التى جعلتهم يواصلون تعليم الرسول فى مثـل هذا النكران للذات والايثار المتناهى حتى لم يكتشف المسلمون المحيطون بمحمد صباحا ومساء هؤلاء المعلمين ؟· وأين كان يمكن له الاجتماع بهم بعيدا عن أعين المسلمين جميعا ؟ ، وما سبب اسلام الكثيرين من أحبار اليهود كعبد اللـه بن سلام اذا كان محمد مبتدعا ومقتبسا كما يدعـى رودلف ؟ ، وما دفع محمد الى تحمل كل هذا الاذى ومعاداة القوم ما دام بطبعه لا يحب الظلم والعدوان ولا يطمـع الى حياة الملوك التى لـو أرادها لـما امتنعت عليـه ·

يقول رودلف فى صفحة 71 « كـان أهم شىء لديه ـ يقصد محمدا ـ أن ينذر قومـه ، الذين لم يكن قد أرسل اليهم قبل منذر ، بخطر المحكمة ـ اى يـوم القيامة ـ وباهوا لها قبل فوات الآوان» ـ واذا كان ذلك قد صـح لدى رودلف فيحق لنا أن نعجب لانـه لم يفكر فى تفسير عدم اعتناق الرسول لليهودية أو المسيحية ، خاصة بعد ايمانه هذا بخطورة اليـوم الآخر ورهبته الشديدة منـه ، وكيف يستقيم فى المنطـق أن يخـشى الرسول هذه المحكمة الى هذا الحد ثـم يكذب على قاضيها ويأمن غضبه الى حـد الادعاء بأنه مرسل من طرفه الى الناس كافـة ·

وكيف استقام لرودلف هذا الحكـم الراسخ على الرسول بالكذب رغم علمه بأن محمدا الصادق الامين « كان له من حياتـه واعمالـه مـا يـوحى بصـدق رسالته » ص 43 ·

ومـا الهــدف ؟

كان من الطبيعى بعد كل تلك الاخطاء والمفتريات أن يحاول رودلف جنى ثمارها فى عالم السياسة المعاصرة ، وذلك ما لم يتضح الا فقط فى آخر صفحة بالكتاب فى قوله : « ان الاسلام مهما تفوت على تلك الشيع المسيحية فليس يصـح أن يوضع فى مرتبة واحدة مع مسيحية العهد الجديد · ان هـذه المحاولـة التى طالما تكررت فى هذه الايام ، ولا سيما فـى عهـد الحلف الالمانى التـركى ، بغض النظر عـن التباين القائم وان اشتـد التشابه الظاهرى ، مثال ذلك أن اللـه هو الرحمن الرحيم بيد أن رحمته هى رحمة الطاغية الذى يعروه مزاج حسى لا الحب الرحيم من الاب السماوى الذى يراعى فى أعماله أسمى الاغراض » · ـ وردولف لا يكتفى فى هـذه العبـارة

باهانة الرسول صلى الله عليه وسلم كما في باقي الكتاب ، بل يتجرأ على الله سبحانه فيصفه بالطغيان والهوى المتقلب لقد كان حريا برودلف ـ لو أراد أن يتبع منهجا علميا ـ أن يتبنى أحد موقفين ٠

ـ فاما أن يعتبر الاديان الثلاثة خرافات وأساطير واكاذيب ، وبالتالي لا يكون هناك مجال لتلك الاشادة بالاب السماوي الرحيم الذي يراعي في أعماله أسمى الاغراض ٠

ـ واما ان يعتبرها كلها ايضا بما فيها الدين الاسلامي أديانا سماوية ، فينتفي الاساس الذي أقام عليه هذا البحث غير الموضوعي ٠

أما أن يتخذ هذا الموقف العدائي تجاه رسالة الاسلام فقط فأمر غير علمي اطلاقا ، لان اليهود يدعون بدورهم ان المسيح كان كذلك كاذبا مدعيا ، وأن المسيحيين قد اقتبسوا مواد دينهم من اليهودية ٠ وفي المقابل نجد ان ابحاثا عديدة قد وضحت الكثير من التحريفات في نصوص التوراة الحالية ، ومنها ما ذكره محمد عزة دروزة في كتابه القيم « تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم » حيث أثبت أن التوراة الحقيقية مفقودة تماما ، وأن التوراة الحالية ما هي الا حكايات ، مجهول كاتبها ومجهول زمان كتابتها ، والحديث فيها دائما عن موسى بصيغة الغائب ، وفي الاصحاح 24 من سفر الخروج يقول الراوي المجهول : « فكتب موسى جميع كلام الرب » ٠ ولم يعثر أحد أبدا على هذا الذي كتبه موسى من كلام الرب حتى الآن ٠

فموقف رودلف من القرآن والتوراة والانجيل لم يكن علميا ولا موضوعيا ، فهو لم يناقش ما كتب عن تحريفات الكتب السابقة ، ولم يناقش ما قيل في اعجاز القرآن مما يثبت أنه كتاب سماوي بلا ادنى شك ، ولعل آخر ما كتب في ذلك اكتشاف الاعجاز العددي للقرآن ، بواسطة الحاسب الاليكتروني على نفقة المركز الاسلامي بجامع توسان بامريكا ، ونشر في العديد من الصحف والمجلات العربية والاجنبية ٠ ولا يوجد ما يوحي باطلاع رودلف على ما كتب في هذا أو ذاك ، ورغم ذلك لم تجد دار الطليعة للطباعة والنشر بأسا في وصف الكتاب بسعة الاطلاع وغزارة المعلومات ٠

ويجدر بنا ان نشجب أسلوب الاتجار والمزايدة باستعمال هذه الاوصاف أو غيرها من الكلمات الطنانة مثل «العقلية الموضوعية» و «العلمانية» و «التحويل الديمقراطي للمجتمع» ٠٠ تلك الكلمات التي أفلسها الاسراف الشديد في

استعمالها ، حتى تغرب معناها وتبدل مضمونها • هذه المتاجرة التى نجدها فى الغلاف الاخير من كتاب رودلف فى التعليق الذى يقول : « السمة الاساسية لهذا الكتاب ، علاوة على سعة الاطلاع وغزارة المعلومات ، العقلية الموضوعية والعلمانية التى هى العماد الذى يقوم عليه التحويل الديمقراطى للمجتمع » •

ولعل هذه الكلمات كانت سببا رئيسيا فى اخفاء حقيقة الكتاب ، مما سمح له بالتسلل الى الجزائر المسلمة المعتزة باسلامها •

انسان القرآن وانسان الشيطان (*)

محمد الصالح الصديق

خلق الله الانسان نموذجا عجيبا فى هذه الحياة ، جمع بين العالمين : المادى والروحى وهو بروحه يشارك أهل السماء فى العلو والصفاء ، وبجسده يعيش فى الارض ، ويشارك الحيوانات فى تعاطى أفعالها ويقضى فى هذا الوجود وقتا محددا ثم هو تراب فى تراب ·

وللالتقاء هذين العنصرين المتضادين فى الانسان أى لكونه سماويا وارضيا نال ميزة التكريم ، واستخلفه الله فى هذه الارض ، وجعله فيها سيد الكائنات.

ولخطورة هذه الخلافة ، وثقل تبعاتها ومسؤولياتها أودع الله فى الانسان من قوة التمييز ، والادراك ، والارادة ، والاختيار ، ما يحقق به رسالته فى هذه الحياة ·

ثم من فضل الله على الانسان ، أنه أنزل عليه القرآن ، ورسم له فيه المعالم والانظمة والحدود ، التى عليها تترتب استقامة الانسان ، ثم بالتالى تأديته لمهام رسالته خير تادية ، اذا هو أحكم النظر ، واستغل العقل فى الانتفاع بها ، وسخره فى البحث السليم ، والدراسة الهادفة المتزنة ، دون مغالاة أو تطرف :

(من عمل صالحا فلنفسه ، ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) (1) ·

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (2) ·

(فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها) (3) ·

(قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا) (4) ·

(*) هذا المقال من كتاب « فى ظل الاسلام » الذى سيصدر قريبا للكاتب ·

(1) فصلت الآية 46 ·

(2) الكهف من آية 29 ·

(3) الانعام من آية 104 ·

(4) الأسراء من آية 84 ·

(ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها) (5) ٠

(فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون) (6) ٠

ففى هذا الكتاب المبين ، الذى يصل الارض بالسماء ، ما يرقى الانسان الى أسمى مكانة يحلم بها المصلحون فى هذا الوجود ، ويضمن له بعد هذه الحياة حياة أخرى « فيها ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (7) ٠

فالانسان اذا اعتصم بالقرآن ، واستضاء بتعاليمه وأنظمته وتوجيهاته ، كان انسان القرآن الذى تسعى من أجل صنعه الاديان السماوية ، على اختلاف عصورها وأصحابها ٠ وقد تفتح العقل البشرى لهذا الكتاب ، وتفاعلت النفس مع تعاليمه ، ووعى القلب أحكامه وأسراره ، فكان ما كان من تأثيره العجيب فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فى التابعين بعدهم ٠

فبينما كان الانسان فى الجاهلية فى الدرك الاسفل من الانحطاط العقلى ، والنفسى ، والروحى ، يعاقر الخمر الى حد الادمان ، ويماجن الى حد الاستهتار ، ويطمع الى حد الجشع والنهامة ، ويقسو ويظلم الى حد الوأد وقتل الاولاد ، ويرتكس فى عادات وتقاليد لا أسخف منها ولا أحط ، ويعبد الاصنام والنجوم ، فاذا بالقرآن الكريم يحول هذا الانسان الذى حاطت به أسباب الفناء العاجل من كل جهة ــ الى انسان آخر مهذب النفس ، سامى العواطف ، رقيق الشعور ، حر التفكير ، يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئا ، ويضحى بماله ونفسه فى سبيل عقيدته ، ويحب لاخيه المسلم ما يحب لنفسه ، ويحارب الفساد ، ويقاوم العادات السيئة ، وينشر العدالة والمساواة والاخاء ، ويتحفز للتضحية والاستشهاد فى سبيل صيانة الحقوق والحرمات ٠

واذا أردت أن تسمع وصفا دقيقا موجزا لهذه النقلة الضخمة العجيبة ، التى لم يعرف التاريخ مثيلها فى مختلف العصور ، فارهف أذنيك واستمع الى جعفر بن أبى طالب وهو يجيب النجاشى أمبراطور الحبشة ، وقد سأل المهاجرين عن وصف الاسلام يقول :

---

(5) الشمس الآيات 7 ــ 8 ــ 9 ــ 10 ٠
(6) الانبياء الآية 94 ٠
(7) رواه مسلم ٠

(كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به ٠٠ فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك) ٠

وفي هذه الاجابة الدقيقة الوجيزة ، وصف للعرب وأخلاقهم قبل الاسلام وأثر الاسلام فيهم بعد أن اعتنقوه عن عقيدة وايمان ٠

وغير خاف اذن أن الذين انتفعوا بعقولهم وحكموها فيما جاء به القرآن الكريم من شرائع ، ومبادىء ، وتوجيهات قد ارتفعت عن بصائرهم غشاوة الجهالة وأضاء أمامهم سبيل المعرفة فتحرروا من أغلال التقليد وأسر محاكاة الآباء الاولين لانهم اتبعوا ما أنزل الله ٠

وأما الذين طبع على قلوبهم ، وخيمت على عقولهم سحب الوهم واستبدت بها الضلالة وزاغت بها الاهواء ، فهؤلاء كلما دعوا الى تعاليم القرآن وشرائعه وهجر ما ألفوه مما لا يقره الاسلام ولا يتفق ومكانة الانسان في هذا الوجود ، رفضوا الاستجابة وأصروا على التشبث بما وجدوا عليه آباءهم وان كان ذلك لا يقبله المنطق ويتناقض مع الواقع وليس من العدل في نظرهم أن يتنكروا لما عليه الآباء والاسلاف ٠

وما أجمل أن نسمع من القرآن الكريم تنديده بهؤلاء الجامدين وتشنيعه بسخافة عقولهم التي عطلوها عن أداء وظيفتها ٠

قال تعالى :

(واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (8) ٠

وسواء أكانت هذه الآية تعني المشركين الذين تكرر منهم هذا القول

(8) البقرة الآية 170 ٠

كلما دعوا الى الاسلام أم تعنى اليهود الذين كانوا يصرون على ما عندهم من مأثور آبائهم وأجدادهم فان لهم اشباها ونظائر بين المسلمين فى كل عصر وفى كل بلد ·

وهؤلاء هم الذين ينتسبون الى الاسلام ويؤدون شعائر منه ، ولكنهم انحرفوا عن جادته ولم يتقيدوا بما أنزل الله ·

فتراهم يؤمنون بالدجالين ، والمشعوذين ، ويستمسكون بالعادات الزائفة التى وجدوا عليها آباءهم ، ويتشبثون بالبدع والخرافات ، ويتكلون على الاموات ويتمسحون بأضرحة الاولياء ويترامون على أعتابها ، ويشدون الرحال اليها للاستعانة والاستشفاء وقضاء الحاجات ·

وكم فقيرات فى القرى لم يجدن ثوبا يلبسنه ، وتوابيت الاولياء قد لبست من الحرير ، وأنواع مختلفة من الاقمشة ما يكسو عشرات منهن بل مئات وآلاف ·

(واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ؟

وما تزال الاحتفالات التى تسمى الموالد ، تقام فى بعض البلاد الاسلامية تقربا الى الله وهو زعم باطل يعرفه من شاهد هذه الاحتفالات لانها فى الحقيقة اسواق للفسوق ، وحانات للخمور ، ومراقص تعرض فيها الاجسام فى خلاعة ومجون واستهتار ·

وكم من حرمات تنتهك فيها ، وكم من منكرات ترتكب فيها ، وبعض هذه الاحتفالات تقام فى المقابر ، وفى أضرحة الاولياء والصالحين ·

(واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) ؟

فالآية الكريمة تنتظم هؤلاء ، وأولئك وتستهدفهم جميعا بالنعى والتشنيع والسخط ·

وأى فرق بين المشركين الذين تعصبوا لما عليه آباؤهم وتنكروا للاسلام وبين (انصاف) المسلمين الذين حرفوا الاسلام وشوهوا وجهه وحطوا من قيمته ، وجعلوه مثار السخرية والانتقاد من قبل الاجانب ·

واذا كان هناك من فرق فهو أن المسلمين الذين ألحقوا بالاسلام ما ليس منه وسخروا أنفسهم للبدع والخرافات والشعوذة اشد خطرا على الاسلام من غير المسلمين ·

والعجيب أن هؤلاء قد أنسوا بالاوهام والاباطيل ، والخرافات ، التى اغرقوا

فيها الاسلام واستوحشوا من شعائـــر الدين ، وتعاليم القرآن حتى اذا ما دعوتهم الى نبذ ما هـــم عليــه هاجوا وثاروا ، ونعتوك بالكفر والالحاد ، وحاجوك بعمل فلان ، او قوله ، او سكوته ، فكأن فلانا محمد صلى الله عليه وسلم ، يعمل بقوله وعمله وسكوته ۰

وقد قلت يوما لرجل من هؤلاء ان ما أنت عليه ضلال وطريق الى الشرك وكان قد بنى قبة على ضريح شيخ ، وانفق فى زخـرفتها ونقشها واضاءتها بالكهـرباء اموالا طائلة وذكرت له ما روى من أن النبى صلى اللــه عليه وسلم أمر علـيا ابن ابى طالب أن يسوى بالارض كـــل قبر ، وأن يهدم كل صنم (9) لانهما فى الضلالة سواء ۰

فتأفف الرجل وقال فى حسرة وألم :

ما أفســد الاســلام الا الملحدون ، والعلماء المصريون فالملحدون ينكـرونه والعلماء يحاربونه ۰

وهكذا أنس هؤلاء بالبدع والخرافات فظنوها من صميم الاسلام ، ومن حاول محاربتها والقضاء عليها عـد فى نظرهم زنديقا او كافرا ، أو محاربا للاسلام ۰

تحدث راهب فى الجزائر مع أحـــد الاساتذة منذ أيام فى شأن الاسلام ثم قال له : (ما اشبه دينكم فى صفائه ونقاوته وطيبه ، بالعطر ، ولكنكم أضفتم اليــه مادة قذرة منتنة فصار بها متعفنا ۰ أما ديننا فكان كالماء الآسن المتعفن ، فأضفنا اليه مادة نقية عطرة ، فصار بها بهجــة للناظرين) ۰

ان هذا القول جدير بالتأمل والاعتبار سيما من رجال الدين الذين تقع عـــلى كواهلهم عهدة الدين ومسؤوليته ۰

فليتخذ هؤلاء الرجال ، مـن عزمهم سلاحا ماضيا ، ومن ارادتهم سيفا قاطعا ومن ايمانهم قوة ماحقة ، يحاربون كل ما هو دخيل على الاسلام ، حتى يعـود الى أصله وصفائه وقوته ۰ وان تقاعسوا عن الواجب ، وناموا عن الحـــق ، وسكتوا سكوت الموتى فلينتظروا مع الله حسابا عسيرا ، وخزيا مبينا ، حينما يساقون لساحة حق ، وميزان عدل ۰

---

(9) رواه مسلم ۰

الهجـــرة
و
دار النـــدوة

«تمثيليـة ذات خمســة فصــول»

الشيخ عبد الرحمن الجيلالي
مـؤرخ جزائري

الفصــل الاول

في بادية المدينة ـ يثرب ، ما بين النخيل ، القوم يتسامرون تحت ضياء القمر ... وحولهم الخيام ...

مشهــد ـ 1 ـ

ذكـــوان ـ **يخاطب الجماعة :** ... ولكنكم انتم كتمتم عنا رحلتكم الى مكة ، واخفيتم عنا لقاءكم بمحمد في العقبة ولم ندر عن محادثتكم معه هنالك شيئا ؟ ... فكيف كان ذلك ؟ ...

ابــن زرارة ـ انما كنا نترقب الفرصة السانحة والوقت المناسب لنحدثكم عن ذلك ...

ذكـــوان ـ **ساخرا :** ولعلكم كفرتم بدين قومكم وتنكرتم لقوميتكم ووطنيتكم الموروثة أبا عن جد ! ... واتبعتم محمدا ؟ ...

ابــن زرارة ـ ليس بذاك ، ليس بذاك !.. ولكن ها نحن نقص عليكم الحادثة كما هي ، ثم انظروا فيها ...

ذكـــوان ـ هات يا سعد حدث ! ...

ابــن زرارة ـ **لابي الهيثم :** تقدم يا أبا الهيثم وانشر بيننا حديث شعب العقبة.

ابـو الهيثـم ـ أتشرف ! ... لقــد كان ذلــك أيها الرفقاء في منتصف أيـام التشريق حيث كنا يومئذ نحو السبعين رجلا وامرأتين ... حتى اذا جاء وقت الموعد المعين بيننا وبين محمد صعدنا لانتظاره.

ذكـــــوان - **مقاطعا :** وهل انتظرتموه طويلا ؟ ...

ابـو الهيثـم - لا ، بل جاءنا فى الموعد بالضبط ، ولم يخلف وعده .

ابــن زرارة - وكيف يخلف وعده وهو مثال الوفاء والصدق والامانة فى قومه حتى انه عرف بالامين عندهم .

ذكـــــوان - وهل جاءكم وحده منفردا ؟ ...

ابـو الهيثـم - لا ! ... بل جاء يصاحبه عمه العباس بن عبد المطلب .

ذكـــــوان - **ساخرا :** ... انها لشجاعة ... لماذا لم يحضر وحده بمفرده ؟

ابـو الهيثـم - انما كان اجتماعنا ليلا فى الخفاء ... **متحمسا** ! ثم ما يهمك انت من ذلك ؟ ... لقد كانت مصاحبة العباس له ليستوثق منا لابن أخيه ولقومه بعد ذلك .

عـــويـــم - دعونا من كل هذه المناقشة الفارغة ... ... وحدثونا عـن الغاية والمقصود بالذات من هذا اللقاء ... فبماذا تكلم محمد ؟

ابـو الهيثـم - كان أول من تكلم عمه .

ذكـــــوان - انما قصدتم محمدا أم عمه ؟ ! ...

ابـو الهيثـم - بل محمدا ... ولكن لا تنس ان عمه سيد وعظيم من رؤسـاء قريش ... وزد الى ذلك ان محمدا نفسه لما قدم لنا عمه قال هذا بقية آبائى .

عـــويـــم - وكأنه بذلك يريد التحصن لنفسه ... وماذا قال العباس ؟

ابــن زرارة - قال لنا يا معشر الخزرج ، ان محمدا مـنا لا نسلمه ولا نخذله ، وهو بيننا فى المكان الذى تعلمونه من رفعة وعز وشرف ، وهـو الآن فى سبيل عقيدته يريد الهجرة اليكم والالتحاق بكم فى يثرب بناء على عهدكم السابق له ، فان كنتم حقا من أنصـاره وحزبه وتدافعون عنه حق الدفاع فها هو لكم ، وان كنتم فى شك او ريب من امركم فدعوه لنا من الآن واتركوه بين قومـه وعشيرته فى بلده .

عـــويـــم - **ملتفتا الى الجماعة :** ... وهل العباس مؤمن ومصدق بنبوة ابن أخيه ؟ ...

ابــن زرارة - لا ... بل هو ما زال على دين آبائه وقومـــه ... على ملـة عبد المطلب .

قهقهة من خصوم محمد

عـويـم ـ **لانصار محمد** : وبماذا أجبتم محمدا ؟ ...

ابـن زرارة ـ لقد وعدناه بالنصرة وعاهدناه على ذلك .

عـويـم ـ تبا لكم ... أهكذا تبرمون أمرا عظيما كهذا عن غير تفكير ولا روية ... فهذا راى فطير ، ولا خير فى الرأى الفطير ! ...

البـراء ـ ان مسؤوليته علينا ، لا عليك .

عـويـم ـ أنتم وما تحملتم .

ذكـوان ـ ولكن الى حد الآن لم نعلم منكم عن محمد شيئا ... فماذا قال محمد ؟ ...

البـراء ـ ... كان بعد ما تلى علينا القرآن ... قال : أبايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم ، فقلنا أجل .

ابـو الهيثم ـ واعترضتهم انا قبل التعاقد على هذا بأخذ العهد منه أيضا مسبقا.

عـويـم ـ **مبتهجا فرحا** : ذاك عهدى بك والظن فيك أيها البطل الصنديد .

آبـو الهيثم ـ **مستمرا فى حديثه** : انى خشيت ورب الكعبة اذ ربما يظهر علينا وينتصر ثم يعود الى قومه ... وما يدرينا ؟ ...

عـويـم ـ وما فعل محمد وقتئذ ؟ ...

آبـو الهيثم ـ تبسم فى وجهى وأكد لى بانه منا ونحن منه ، يحارب من حاربنا ويسالم من سالمنا ... وحينئذ تصافحنا معه متعاهدين على البيعة.

البـراء ـ **مفتخرا** : وكنت أنا أول من مد له يده ، وقلت بايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناها عن آبائنا واجدادنا الكرام كابرا عن كابر .

لنا فى كل يوم من معد   سباب أو قتال أو هجاء

ذكـوان ـ ما اطيب قلوبكم واسرعكم الى الايمان ! ... وهل بايعتموه على الحرب أيضا ؟ ...

البـراء ـ نعم بايعناه على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا وفى كل موقف كان لنا او علينا ... وان نعلن كلمة الحق حيثما كنا ، كان ذلك لنا أو علينا فلا نخاف فى الله لومة لائم .

ذكـــــوان ـ ثم ماذا **ويقوم مستعدا للذهاب** ...

البـــــراء ـ ثم افترقنا .

ذكـــــوان ـ سننظر فى الامر ... عموا مساء **يذهب وتذهب معه البقية** : عموا مساء ... عموا مساء ... **ويبقى ابن زرارة والبراء** .

مشهـــد ـ 2 ـ

أسيـــــد ـ **يجيء مغضبا وبيده حربة** : ما جاء بكما الى هنا تعبثان بعقـول ابنائنا وضعفائنا ! ... اعتزلا عنا ان كانت لكما حاجة فى الحياة والبقـاء .

البـــــراء ـ **مجيبا لاسيد** : أوتجلس فتسمع ؟ ... فاذا لم يرقك أمر كففناه عنك .

أسيـــــد ـ **يجلس** .

البـــــراء ـ اسمع **مرتلا** : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** » .

اسيـــــد ـ **يتهلل وجهه** : كيف تصنعون يا قوم اذا أردتم الدخول فى هذا الدين الجديد ، دين محمد ؟ ...

البـــــراء ـ نشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبـده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

اسيـــــد ـ **متأمـلا** : وما هو ملاك هذا الامر وغايته ؟

البـــــراء ـ ملاكه وأساسه مكارم الاخلاق وغايته وروحه اخلاص العبـادة لله رب العالمين وحده لا شريك له واطاعة رسوله .

أسيـــــد ـ ما أحسن هذا ... انه وحياتكم لدين الفطرة .

ابـــن زرارة ـ **لأسيد** : وما يمنعك يا أسيد ان تسلم وأنت سيد أهل يثرب ، فتزيد بذلك شرفا الى شرفك ، ورفعة الى رفعتك وتترك فى قومك منقبة خالدة خلود هذا الدين الخالد ؟ !

اسيـــــد ـ **فى حالة قيام** : اشهد انه لا ياتى بمثل ما جاء به محمد الا نبى ! ... ولقد تركت ورائى رجلا ان اتبعكما لا يتخلف عنه أحـد ـ **ذاهبا** ـ : وسأرسله اليكما .

ابـــن زرارة ـ على رسلك يا أسيد ··· فمن هذا الرجل الذى تعنيه ؟

أسيـــــد ـ سعد بن معاذ سيد الاوس بلا منازع ! ··· **ياخذ حربته ويذهب.**

ابـــن زرارة ـ **للبراء** وما يدريك يا براء فلعل الله يؤيد هذا الدين على يد رجل فاجر ؟ ··· ولعله يسلم ؟ ···

البـــــراء ـ ولان يهدى الله على يدك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس ـ **ويلتفت فيرى ابن معاذ مقبـــلا فيقـــول لصاحبه ـ**
ابن زرارة : لقد جاءك سيد الاوس ! ···

ابـــن زرارة ـ فالله المستعان ·

مشهـــد ـ 3 ـ

اسعـد بن معاذ ـ **مغضبا ومهددا لابن زرارة ، قائلا :** لولا قرابتك منى يا ابن زرارة ما صبرت على اذاك فى مجالسنا هذه ·

ابـــن زرارة ـ **مبتسما :** مرحبا بسعد بن معاذ سيد الاوس ··· أوما يسمع ؟ ··· فان رضيت فذاك . وان كرهت عزلنا عنك ما تكره ·

سعـــــد ـ أنصفت فقل ·

ابـــن زرارة ـ يتلو مرتلا : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننـا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقـــولوا اشهدوا بـانـا مسلمون** » ·

اسعـد بن معاذ ـ **بعد أن يطرق :** وكيف تصنعون اذا أنتم اسلمتم ؟··

مصعـــب ـ ان ننبذ ونترك الطواغيت ونتجنب الاصنام والاوثان و ···

البـــــراء ـ **مقاطعا :** نعم ، نعم ، اذ هى جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنا من الله شيئا ·

ابـــن زرارة ـ أجل فذاك هو ·

اسعـد بن معاذ ـ أشهد كما انى آمنت بالله ··· آمنت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا ·

الحـاضران ـ اللـه أكبر !··· اللـه أكبر !···

اسعـد بن معاذ ـ **ينهض فيمشى خطوات يميـنا وشمـالا منـاديا :** يـا بنى عبـد الاشهد !··· يا أهـل يثرب !··· أسلموا تسلموا ··· فانى

اقسمت وآليت على نفسى بأنى لا أكلم اليوم منكم أحدا كائنا من كان رجلا أو امرأة حتى يسلم !...

هنا تسمع أصوات من بعيد : اسلمنا ... اسلمنا يا ابن معاذ ... فنحن على قدمك يا سيد الاوس !

ابـــن زرارة ـ **يلتفت مشيرا بعصاه :** ها هم المهاجرون قادمون .

الحــاضران ـ **يلتفتان ليقتبلا المهاجرين :** مرحبا أهلا وسهلا ... فعلى الرحب والسعــة .

مشهـــــد ـ 4 ـ

وهم يحملون امتعتهم وازوادهم : السلام عليكم ...

الحــاضرون ـ وعليكم السلام ورحمة اللــه !... مرحبا ياخواننا المهاجرين ! مرحبا بصحابة رسول الله !... أهلا وسهلا ... قدمتم خـير مقدم ... مرحبا مرحبا ...

الفصـــل الثــــانى

مشهـــــد ـ 1 ـ

منظر مكة وابو سفيان يماشى أبا الحكم فى شوارع مكة متاملا فى أبواب منــازل المهاجرين المغلقة فيتنفس الصعداء قائلا :

وكــل بيـــت وان طالــت ســـلامته

يـــوما ستـدركه النكـباء والحـــوب

ابــو سفيــان ـ أيـن آل بنى مظعون ؟ ... أيـن آل بنى جحش ؟ ... أيـــن بنو بكـير ؟ ... لقد فـرق محمد جمعنا وشتت شملنا وقطـع ما بينـنا !.

ابــو الحكـــم ـ هون عليك يا أبا سفيان ، أو مثلك يهتم بمحمد ؟ وهو ذلك الرجل المشعوذ الساحر الكذاب ؟!! ...

ابــو سفيــان ـ الا ترى يا أبا الحكم الى ما بلغ اليه هذا الصابىء من التاثير على قومنا وعشيرتنا حتى آقفرت منهم هذه البيوت والديار ... وقد خرج اهلها من مكة وذهبوا مهاجرين الى يثرب .

ابــو الحكـــم ـ نعـم فليذهب عنا هؤلاء ضعفاء العقول والاغبياء وليتركوا لــنا بلدنا آمنا مطمئنا .

ابـو سفيـان ـ وقد بلغنى انه ملتحق بهم ·

ابـو الحكـم ـ وبعد ؟ ··· فليذهب !··· اليس فى ذلك راحة لنا من هوسه ؟ وهو انتصار لنا ايضا ، فيا حبذا لو يفعل ·

ابـو سفيـان ـ أنا أخشى ان ينعكس علينا الامر !؟

ابـو الحكـم ـ مستحيـل !···

ابـو سفيـان ـ انت تقول مستحيل ··· أو لا ترى ذلك الاقبال الهائل الـذى وقع على دينه بيثرب ؟···

ابـو الحكـم ـ نعم ، وما علينا نحن يا أبا سفيان اذا لم يكن ذلك من أهل مكة ··· من قريش ·

ابـو سفيـان ـ لا اظنك يا أبا الحكم تجهل موقع يثرب من بلادنا ؟

ابـو الحكـم ـ وكيف ذلك ؟···

ابـو سفيـان ـ اليست يثرب فى طريقنا الى الشام ؟···

ابـو الحكـم ـ نعـم ·

ابـو سفيـان ـ فاذا تمكن منها محمد وأصحابه فايـن لنا مـن مواصلة رحلتنا صيفا الى هنالك ؟··· وكيف بتجارتنا ومصالحنا بتلك الديار ؟

ابـو الحكـم ـ نعم صدقت ، واذا فكيف العمل ؟

أبـو سفيـان ـ أرى اننا اذا لم نسرع نحن بالقضاء عليه قضى علينا هو بسرعة عاجلة !···

ابـو الحكـم ـ ما العمل ؟··· ما التدبير ؟···

ابـو سفيـان ـ لنجمع سادة العرب واشرافها بـدار الندوة حالا ولنتشاور فى الامـــر ·

ابـو الحكـم ـ مرحى ··· مرحى ··· لا عدمناك يا أبا سفيان ··· فما خاب من استشار ·

ابـو سفيـان ـ البدار البدار ··· **يهرول فيصعد شرفا وينادى :** يا صباحاه !· يا صباحاه !··

مشهـــد ـ 2 ـ

الجمهـــــور ـ لبيك ··· لبيك يا أبا سفيان ··· لبيك وسعديك والخـير فى يديك ، والشر ليس اليك ···

أبــو سفيــان ـ **خطيبا :** يا قوم ! لقد علمتم أمر هذا الساحر الكذاب ماذا صنع في مجتمعنا هذا من تشتيت وتفريق ، واني أرى أمــره هذا يزداد كل يوم تمكنا من القلوب وانتشارا في الارض ··· ولم يكتف بمقاومة ديننا وتسفيه أحلام شبابنا وتغيير عقائدنا حتى أصبح اليوم يسعى في قطع معاشنا بالحيلولة بيننا وبين بـلاد الشام التي نستورد منها معاشنا ونكتسب منها ومن غيرها رزقنا وذلك بنزوله واصحابه معه أرض يثرب ،··· فقد بلغني وانه سيلتحق بهم هنالك !··· فتعالوا نعالـج أمـره هذا قبل ان ينتشر خطـره ، وليتقدم السادة مـن أشراف قريش وسادتها الميامين الى دار الندوة مسرعين ·

الجمهـــــور ـ **في ازدحام عظيم :** حـبا وكرامة !·· حبا وكرامة !·· الى دار النــدوة ···

مشهـــد ـ 3 ـ

ابلـيـــس ـ **في دار الندوة يتقدم في هيئة شيخ نجدي ·**

ابــو سفيــان ـ من الشيخ ؟··

ابلـيـــس ـ شيخ من أهل نجد حنكته التجارب يرجو المساهمة معكم في هذا الاجتماع الهام ليسمع ما تدبرونه في شان هذا المارق ، فعسى أن تجدوا عندي رأيا صائبا ونصحا مخلصا ·

ابــو سفيــان ـ أجل ، تقدم يا سيخ ·

هنا يتقدم الجمع الى دار الندوة ومعهم الشيخ النجدي

ابــو سفيــان ـ **لابي الحكم :** تكلم يا أبا الحكم ·

ابــو الحكــم ـ ان محمدا قد كان من أمره ما علمتم ، ولقد اتبعه عمر بن الخطاب وهو رجل عظيم في قريش ، ذو قوة وباس شديد ، كما انه نراه قد إعتز باسلام عمه حمزة ، وانه يتلقى الوفود مـن الناس في المواسم والاسواق ، ولا سيما في موسم الحج فيوسوس لهـم ويعرض عليهم دينه الجديد !·· فواللات والعزى لقد خشيت من نهضة عارمة من قبله تكون علينا فتأتي على الاخضر واليابس ··· فأجمعوا فيه رأيا ؟!··

أبـو سفيـان ـ يقول لامية : وماذا عندك أنت يا أمية ؟٠٠٠

أبو البختـرى ـ احبسوه وكبلوه فى الحديد واغلقوا عليه بابا غير طاق واحـد صغير تلقون اليه طعامه وشرابه منه ، وتربصوا بـه ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله كزهير أو النابغة وغيرهما ممن مضى قبلهم ٠

الشيخ النجدى ـ صارخا : لا واللات !٠٠٠ ما هذا لكم برأى يا قوم ! والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم الى أصحابه وأتباعه ، فيكثرون ويحاربونكم حتى يغلبوكم على أمركم ويلتفت الى أميـة قائلا : فبئس الرأى الذى رأيتـه يـا أبا البخترى فانظروا فى غيره يا قوم وتشاوروا ٠٠٠

أبو الاســود ـ صدق الشيخ ورب الكعبة ، !٠٠٠ ألم تحبسه وعشيرته قريش من قبل فى الشعب ؟٠٠٠ انسيت كـل ذلك يا أمية ؟٠٠٠ ماذا نفعـنا سجنه ؟ ٠٠٠ لا شىء ! ٠٠٠ فالـرأى عنـدى هـو ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فننفيه من بلادنا ثم لا يضرنا ما صنع ، واسترحنا منه جميعا ، ولا نبالى أين ذهـب

شيـبـــة ـ (مقاطعا) نعم ، نعم ، ثم بعد ذلك نشتغل بأنفسنا فنصلح مـن شأننا وما اختل من أمور حياتنا ومعاشنا وتعود الفتنا كما كانت .

الشيخ النجدى ـ صارخا : كلا واللات ما هذا لكم برأى !٠٠٠ (القوم فى دهش) ألم تروا الى حسن كلامه ، وحلاوة منطقه ، وقوة حجته ، وغلبته على قلوب الرجال فيما يأتى به ؟٠٠٠ أليس أحد بمكـة عنده شىء يخشى عليه الا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ؟٠٠٠

هشـــام ـ نعم ، نعم ، ثم ماذا ؟ وما العمل اذن ؟٠٠٠

الشيخ النجدى ـ فواللات لو فعلتم ذلك لنزل صاحبكم على حى من أحياء العـرب فيغلب عليهم بكلامه اللطيف ، وحـديثه الظريف حتى يبايعوه فيعـز ويمتنع ويفشو أمره فى القبائل ثم يسـير بهم فيغزوكم ويفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا غير هذا ٠

أبـو الحكـم ـ بعد اطراق وتفكير طويل وتأمل : نعم صدقتم ٠٠٠ وربما افلت من أيدينا والتحق بيثرب ٠٠٠ واللات ان لى فيه لرأيا غير هذا ، ما أراكم رأيتموه ولا وقعتم عليه بعد ٠

ابـو سفيـان ـ وما هو يا أبا الحكم ؟...

ابـو الحكـم ـ الرأى هو ان نأخذ من كل قبيلة شابا قويا يكون من عائلة شريفة فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما بتارا فيقصدون محمدا فيضربونه بسيوفهم هذه ضربة رجـل واحد فيقتلونه ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم.

اميـة ـ واذا طلبوا منا الدية ؟...

ابـو الحكـم ـ ذلك ما كنا نبغ ... أديناها لهم فعقلناه واسترحنا .

الشيخ النجدى ـ بخ بخ بخ !... الآن وقعتم فى الصواب ، وهذا هو الرأى الذى لا أرى لكم غيره ، ... هكذا يذهب دمه هدرا ...

الحـاضرون ـ **لابى الحـكم :** اصبت يا أبا الحكم ... أصبت يا أبا الحـكم اصبـت .

مشهـد ـ 4 ـ

تسمع ضجة من خارج دار الندوة .

ابـو سفيـان ـ **يتحدث مع أبى الحكم :** انظر يا أبا الحكم ما هذه الضجة ؟...

ابـو الحكـم ـ **ينهض ليـرى ما يسمع :** أرى سـادة العرب ورؤساء قـريش يتحاورون بينهم ... **يفكر** ... وأظنهم قادمين نحونا وهم فى طرب وانشراح ...

مشهـد ـ 5 ـ

الجمهور فى دار الندوة .

ابـو الحكـم ـ أهـلا ، آهـلا ومرحبا وسهلا ، مرحبا بابنائنا وفلذات أكبادنا **ثم يقف خطيبا بينهم :** انتم يـا معشر الشباب محـط أملنا فى تخليص ديننا وانقاذ وطننا وقومنا مـن هذه الفوضى والخلاف الذى مزق شملنا وشتت جمعنا ، ويحكم أيها الشباب !

ان دام هذا ولم يحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود انتم أيها الابناء الكرام عصمة هذه الامة العربية القرشية التى لم يسجل لها التاريخ انهزاما قط ، ولم يثبت انها وقعت تحت نفوذ أجنبى مطلقا ، فلم يملكها أحد مـن بنى البشر لا أصفـر ولا أحمـر .

الجمهـور ـ مـرحى ... مـرحى .

ابـو الحكـم ـ **مستمرا فى خطابه** : ولقد علمتم ما فعـل محمد بآلهتنا وديننا ومعابدنا وانظمتنا وجميع مقومات حياتنا ، فاليكموه ! فاقتلوه فى ضربة رجل واحد ومزقوه شر ممزق !...

الجمهـور ـ **هتاف** : ... مرحى ...

ابـو الحكـم ـ واليكم السلاح ـ **يناولهم السيوف** .

ابـو سفيـان ـ فقفوا محيطين بمنزله وانزلوا عليه فى ضربة واحدة عند خروجه يقع لها صريعا .

صياح ابتهاج من الشباب .

ابـو الحكـم ـ اياكم ان يفلت من ايديكم الليلة مثلما افلت من يـدى يوم ان احتملت الحجر عازما على فضخ رأسه فى المسجد .

اميـة ـ وكيف أفلت من يدك يا أبا الحكم ؟...

الجمهور منصت اليه .

ابـو الحكـم ـ **فى دهش** : لا أدرى واللات ... لقد تقدمت نحـوه يومئذ حـتى اذا اقتربت منه أخذتنى رعشة فعدت مرعوبا وقد يبست يداى على الحجر حتى رميت به من يدى .

اميـة ـ لقد سحرك يا أبا الحكم .

ابـو الحكـم ـ لئن كان قد سحرنى يومئذ وانا وحدى فلا أخاله اليوم يستطيع ذلك معكم جميعا .

شيبـة ـ **يدفعه حب الاطلاع** : ... وما هى مزاعم محمد ؟!...

هشـام ـ **بعـد قهقهة وسخرية** : ... يزعم انكم ان آمنتم به وصدقتموه واتبعتموه كنتم ملوك سادة هذه الارض وتنتصرون على ملـك كسرى والروم ويخضع لكم جميع العرب والعجم ... ثم انكم بعد موتكم تبعثون فتكون لكم جنات ونعيم خالدين فيها أبدا .. وان لم تفعلوه كان له فيكم قتل وذبح ثم تبعثون من بعد موتكم الى نار جهنم فتسجرون .

ضحك وقهقهة سخرية من الحاضرين .

اميـة ـ حيـاة ثم مـوت ثم بعـث   حـديث خـرافة يا أم عمـرو

ابـو سفيـان ـ البدار البدار ... البدار ...

بينما القوم فى اندفاع للخروج للعمل من دار الندوة اذا بصارخ يصرخ فيهـم :

الصـــارخ ـ أيها الملأ من قريش !··· ويحكم قد خيبكم الله ! ان محمدا قد هاجر !

ابـو سفيـان ـ مغضبا : انى جعلت فيه مائة ناقة لمن يرده علينا أو يقتله !···! اسرعوا !··· بادروا !···

يذهب الجميع غير ابى سفيان وابى الحكم ·

الفصـــل الثـالـث

مشهـــد ـ 1 ـ

خيمة أم معبد بالبادية

ام معبـــد ـ منهمكة فى خدمة الضيوف بخيمتها حريصة على اكرامهم مـــع شدة فقرها ···

ابـو بكـــر ـ يقترب من ام معبد قائلا : يا أم معبد أما لديك ما تشتريه قوتا لحاضرنا ونتخذ منه زادا لسفرنا ؟···

ام معبـــد ـ بـلى يا سيدى ··· ولكن ليس بيعا ، وانما هـو قرى متواضع بحسب ما ترونه من القحط والجدب النازل اليوم ببلادنا ·

وتسرع فتقدم لهم لبنا ·

صاحب ابو بكر ـ شكرا يا أم معبد ـ ويلتفت فـيرى بكسر الخيمة عنـزا مهزولة الجسم فيتساءل : وما هذه الشاة يا أم معبد ؟···

ام معبـــد ـ هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم فلم تستطع الخروج الى المرعى !

الصـــاحب ـ وهل بها من لبن ؟···

ام معبـــد ـ هي اجهد من ذلك !···

الصـــاحب ـ أتاذنين لى فى حلبها ؟···

ام معبـــد ـ نعم ، بأبى انت وامى ان رأيت بها حلبا فاحلبها ·

الصـــاحب ـ آتينـى بانـاء ·

ام معبـــد ـ تناوله الاناء وهى تقول فى نفسها : ماذا عسى أن يعمل هذا ؟

الصـــاحب ـ يتقدم نحو العنزة فيمسح ضرعها قائلا : بسم اللـه اللهم بارك لها فى شاتها ·

ام معبـــد ـ تنظر اليه متعجبة قائلة : ماذا عسى ان يفعل ؟···

الصـــاحب ـ يحلـب ···

ام معبـــد - مندهشة : ما اعجب الذى أرى هذا اليوم !!..

أبـو بكـــر - لا تعجبنى يا أم معبد .

الصـــاحـب - يسقى القوم مبتدئا بام معبد .

ام معبـــد - تشرب حتى تروى : جزيت خيرا ووقيت ضيرا .

الصـــاحـب - يناول أبا بكر الاناء .

أبـو بكـــر - لصاحبه : وانت يا رسول الله !...

ام معبـــد - مأخوذة من سماعها لكلام أبى بكر وقوله : يا رسول الله !.

الصـــاحـب - ساقى القوم آخرهم .

أبـو بكـــر - يشرب حتى يروى ثم يناول الاناء لباقى الرفقة .

الصـــاحـب - هـو آخر من يشرب ، ثم يعود الى الشاة فيحلبها للمـرة الثانية ويترك الاناء هكذا مملوء لبنا وينصرف .

ابـن اريقـط - اما وقد روينا واسترحنا فلنرحل .

الصـــاحـب - لام معبد : جزاك الله خيرا يا أم معبد .

ام معبـــد - متمثلة : يا ضيفنا ان زرتنا لوجدتنا

نحن الضيوف وأنت رب المنزل

تنهض الجماعة تريد الرحيل فتشد رحلها للمسير وتنطلق .

أم معبـــد - على خير طائر ... على خير طائر .

مشهـــد - 2 -

أبـو معبـــد - يدخل الخيمة يسوق عنزا عجافا ويلتفت فيرى لبنا فى الانـــاء فيقول مخاطبا لزوجه أم معبد : يا أم معبد ما الخبر ؟ ... ويشير الى ايناء اللبن : وما هذا الذى أراه ؟ ...

أم معبـــد - لا والله ، الا أنه مرت بنا جماعة مسافرة ومن بينهم رجل مبارك قام الى شاتنا العجفاء هذه ، فمسح ضرعها بيده حتى درت واجترت وجاءت بلبن غزير ، فسقانى فشربت حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رووا وسمعته يقول : ساقى القوم آخرهم ، فكان هو آخر من شرب .

أبـو معبـــد - صفى لى هذا الرجل العجيب .

ام معبـــد ـ هو رجل ظاهر الوضاءة ، مليح الوجه ، في عينيه دعج ، وفـي اشفاره وطف ، احور ، أكحل ، شديد سواد الشعر ، أزج أفرق الحاجبين وفي لحيته كثافة ، اذا صمت فعليه وقار ، واذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، حسن الخلق والخلق ، ربعـة ، لا تشنوه العين من طول ولا تقتحمه من قصر ، وكأنه بين صاحبيه غصن بين غصنين ، فهو انضر الثلاثة منظرا ، واحسنهم قدرا ، وهم يحفان به ، اذا قال استمعوا لقوله ، وان أمر تبادروا الى أمــره ٠

أبـو معبـــد ـ ويحك يا أم معبد ! ٠٠٠ هذا والله صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه ، وقد بذلوا جعلا لمن يرده اليهـم ، ولو كنت وافقته لالتمست صحبته ـ **ويندفع نحو باب الخيمة ٠٠٠**

ام معبـــد ـ نعم ، هو بلا شك ، اذ قد سمعت رفيقه في السفـر يناديه : يا رسول الله ٠

أبـو معبـــد ـ ولافعلن ان وجدت الى ذلك سبيلا ، **يخرج مسرعا ٠**

مشهـــد ـ 3 ـ

ام معبـــد ـ **في خيمتها وفي خدمة بيتها ٠**

جمـــاعـــة ـ **رجال ونساء وصبيان يدخلون على أم معبد :** احقا ما يذكر عن زوجك فيما يحدث به الناس الساعة عن الرجل الذي مر بكم ؟

ام معبـــد ـ نعم هو كذلك ٠٠٠

احـد الجماعـة ـ فهذا رجل مبارك حقا ! ٠٠٠ وصفته هي ما ذكرت يا أم معبد ؟

ام معبـــد ـ نعـم ٠

احـدهـم ـ **متدهلا :** يا أم معبد ما بال وصفك لهذا الرجل جاء هكذا أنتم أوفى من وصفنا له لو رأيناه نحن الرجال ؟ ٠٠٠

ام معبـــد ـ اما علمتم ان المرأة اذا نظرت الى الرجل كان نظرها اشـفى من نظر الرجل الى الرجل ؟ ! ٠٠٠

النســـوة ـ بلى ورب البيت ! ٠٠٠ بلى ورب الكعبة ! ٠٠٠

الفصـــل الـرابـع

مشهــــد ـ 1 ـ

فى دار الندوة .

اعـــرابـى ـ **يدخل** : عموا مساء ...

امـيــــة ـ ما وراءك يا عصام ؟ ... ما الخبر ؟ ...

الاعــرابـى ـ لقد اطلعت على خبر حول محمد فنقلته اليكم طريا .

امـيــــة ـ لا عدمناك يا أخا العرب .. وما ذاك ؟ ...

الاعــرابـى ـ اخبرنى صديقى الآن وقد جاء من قديد بانه سمع بنفسه حديث أم معبد لزوجها فى الخيمة حين رجع من الرعى .

امـيــــة ـ ومن أم معبد ؟ ...

الاعــرابـى ـ هى عاتكة بنت خالد الخزاعية ، وهى امرأة برزة جلدة تسقى وتطعم بفناء الكعبة .

امـيــــة ـ نعم أعرفها واعرف فضلها على العرب واعــرف زوجهـا ذاك الخزاعى ... وما ذاك ؟ ...

الاعــرابـى ـ قال محدثى بانه سمع عاتكة هذه أم معبد تقول لزوجها بانـه مر بها ثلاثة رجال من بينهم رجل مبارك ، قالت بعد ما رغبوا منها شراء طعام أو شراب لزادهم ذكرت لهم انه ليس عندها ما يباع أو يشترى ... فلمحوا فى بيتها شاة مهزولة فاستاذنها أحدهـم فى حلبها فقالت هى أجهد من ذلك ... وان رايت بها حلبـا فتقدم ، فتقدم أحدهم للشاة ومسح ضرعها وحلب ما اشبع أهل الخيمة كلهم وشرب هو آخرهم ثم اعاد الحلب فملأ ايناءها لبنا وتركها وخرج مع رفقته .

امـيــــة ـ ويا ترى من تكون هذه الجماعة ؟ ...

ابـو سفيـان ـ ولعلهم جماعة مسافرين رفقة .

الاعــرابـى ـ لا وربك انه لمحمد فى رفقته .

ابـو سفيـان ـ ومن أين لك هذا ؟ ...

الاعــرابـى ـ حسبما ذكر لى الراوى ان ابا معبد طلب من زوجته وصف هذا الرجل فقالت هو رجل كذا وكذا وذكرت من صفته ما نعرفه من صفات محمد ٠

ابـو سفيـان ـ وهل علمت ما قال لها زوجها أبو معبد ؟

الاعــرابـى ـ نعم ، قال لها ويحك يا أم معبد ! هذا والله صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه ولو رأيته لاتبعته ٠

ابـو سفيـان ـ تبا له وسحقا ! ٠٠٠ نعم صدقت يكون ذاك هو محمد بعينه حسب الاوصاف الذى وصفت ٠

الاعــرابـى ـ لا ريب فى ذلك ٠

مشهــد ـ 2 ـ

شيـبــة ـ **يدخل مع هشام ٠**

ابـو سفيـان ـ **مبادرا لهما** : ٠٠٠ ماذا فعلتما ! ٠٠٠ وهل قتلتموه ! ٠٠٠ بشرنا ياشيبة ! ٠٠٠

شيـبــة ـ انه لم يوجد فى بيته ! ٠٠٠ بل ولم يبت فيه البارحة أصلا ٠٠٠ ولقد ظننا انه هو على فراشة ، فاذا بـه هو عـلى بن أبى طالب ملفوفا فى برد أخضر ٠

ابـو سفيـان ـ وهلا اجتهدتم فى البحث والتنقيب عنه ؟ ٠٠٠

شيـبــة ـ نعم ، وكيف لا ، لقد انطلقنا جماعات وفرادى نبحث عنه هنا وهناك وبعثنا بالجواسيس الى جميع النواحى والجهات وطلبناه فى السهل والجبل ، فى اعلا مكة وأسفلها وتتبعنا خطواتـه ومشينا فى آثره حتى انقطعت عنا جميع الطرق ولم نترك مكانا الا ودخلناه ، ولا منزلا الا واقتحمناه فطفنا مكة بأطرافها طواف الحجيج بالبيت ونفضناها نفضا حتى استوقفنا الغار ٠

ابـو سفيـان ـ واى غار تعنى ؟

شيـبــة ـ غار ثور بأسفل مكة ٠٠٠

ابـو الحكــم ـ سحقا لكم أيها التعساء ! ٠٠٠ فهلا دخلتم الغار ؟ ! ٠٠٠

شيـبــة ـ كيف كان يتيسر لنا ذلك وقد تدلت فروع شجر الراءة على فوهة الغار فضيقت مدخله ، ولا سبيل لاحد الى اقتحام الغار وهو على ذلـك ! ٠٠٠

أبـو الحكـم ـ فلو أنكم حاولتم ازالة ذلك الحاجز وغامرتم فاقتحمتوه على كل حـال ؟

شيبـة ـ كيف ؟ ··· وقد عشش على بابه حمامتـان وحشيتان وباضتا عنده ، ونسج عليه المنكبوت بكثافة من قبل ميلاد محمد ، فلو دخله محمد أو غيره لتكسر ذلك البيض ولفسخ بيت المنكبوت ··· ومع ذلك فقد سألنا رعاة الشاء فى الجبل : هل من أحـد رايتموه حام حول هذا الغار ؟ ··· فكلهم أجاب بانه لم يشهد أحدا قصده ·

ابـو جهـل ـ فلا عنكبوت ولا شجر الراءة ولا بيض ولا حمام ! ··· وانمـا صرفت ابصاركم وقلوبكم واسماعكم واحاسيسكم كلها عن هـذا الرجل فعمى عليكم الاثر ! ···

هـاتـف ـ **يسمع ولا يرى صاحبه : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجـه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنوده لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا واللـه عزيز حكيم » ·**

الفصـل الخـامس

مشهـد ـ 1 ـ

المسلمـون ـ **فى تحرق وشوق ينتظرون مقدم النبى** : نرجو ان يقدم اليـوم رسول الله ! ··· تعالوا ننتظره ···

يهـودى ـ أنتم كل يوم تقولون هذا ؟ ···

ابـن زرارة ـ نعم نحن والله لنخرج فى أول النهار من كل يوم هكذا كما ترانا نترقب قدومه حتى تحرقنا الشمس فنرجع الى منازلنا وديارنا وما قدم ·

البـراء ـ صبرا يا سعد صبرا ···

ابـن زرارة ـ والله لا استطيع اليوم صبرا ، لقد برح بى الجوى حتى لا استطيع صبرا ··· أحببت ان أرى وجه محمد !

أسيـد ـ صدقت والله ··· فلقد اتبعناه واحببناه وما رأينا وجهه ·

اسعد بن معاذ ـ لقد فاز برؤيته والتمتع بملقاه اخواننا أصحاب العقبة ·

اسيـــــد ـ هنيئا لهم ثم هنيئا ٠٠٠

يهـــودى ـ أوسمعتم بخروجه وحده ؟ ٠٠٠

ابــن زوارة ـ لقد سمعنا باندفاعه من مكة صحبة رفقة ٠

البـــراء ـ **يضع يده على عينيه اتقاء وهج الحر وشعاع الشمس الوهاج ويقول :** ان ضياء الشمس وحرارتها قد عم البقاع ولم يبق لنا ظل قائم نستظل به فلندخل بيوتنا وخيامنا ٠٠٠ فما أحسبه آتيا اليوم ٠

الجميــــع ـ **ينهضون :** نعم فلندخل ٠٠٠ لندخل ٠٠٠ لندخل ٠

رجـــــل ـ **يقبل من نحو قباء مسرعا :** اسمعوا يا قوم !٠٠٠ اسمعوا يا قوم !

الجميــــع ـ **يتلهف :** وما ذاك ؟ ٠٠٠ وما ذاك ؟ ! ٠٠٠ ما وراءك ؟ ٠٠٠

الـــرجــل ـ جئت الآن من قباء وقد رايت رجلا واقفا على باب بيت وعليه من المهابة والوقار ما حملنى على الترحيب والتبرك به فقصدته ، واذا هو يمسكنى من يدى ويقودنى الى داخل البيت ، قائلا : هذا هو نبيك !

أسيـــــد ـ ومن هذا الرجل الذى قادك من يدك الى البيت ؟

الـــرجــل ـ هو أبو بكر بن أبى قحافة ٠

اسعد بن معاذ ـ وكيف حتى عرفته ؟

الـــرجــل ـ عرفته حينما رايته فى قباء والنبى متهيىء للمسير ، فرأيت هذا الرجل يظلله بردائه وقاية له من حر الشمس ، فسمعت النبى يخاطبه بقوله : شكرا لك يا أبا بكر شكرا ٠٠٠

اسعد بن معاذ ـ هنيئا لك هذا بما فزت به دوننا وتمتعت به قبلنا من رؤية طلعة النبى وصاحبه أبى بكر ٠

الجميــــع ـ **فى تهنئة الرجل :** هنيئا لك هنيئا ٠٠٠

اسيـــــد ـ هلموا أيها الرفقاء الى ثنية من ثنايا هذا الجبل نرقب مجىء محمد.

الجميــــع ـ هلموا ٠٠٠ هلموا الى ثنية الوداع علّه يطلع علينا من هناك ؟٠٠٠

يهـــودى ـ **وما يكاد ينصرف الجمع من مكانه حتى يظهر ٠**

يصعد الجبل فيرى محدقا بنظره فى الافق وكانه راى شيئا غير عادى فيصرخ قائلا : يا بنى قيلة ! ٠٠٠ يا بنى قيلة ! ٠٠٠ هذا صاحبكم قد حضر ٠٠٠ هذا صاحبكم قد جاء ! ٠٠٠ **يذهب ٠**

المسلمـــون - يصيحون بصوت واحد : الله أكبر ؟ ... الله أكبر ! ...
يهرعون جميعا نساء ورجالا وصبيانا لاقتبال النبي وتسمع لهم أصوات تدل على البهجة والسرور ... جاء نبي الله ! جاء نبي الله ! جاء رسول الله ... هذا محمد رسول الله ...

مشهـــد - 2 -

اليهـــودى - عائدا مع عمته خالدة : الله أكبر !

خـــالـــدة - خيبك الله يا عمي ! ... والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران حضر ورأيته قادما اليك لما زدت على ذلك ... أخسأ ! ...

اليهـــودى - يا عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران جاء بمثل ما جاء بـه موسى وما جاء به الانبياء قبله ... وقد بشر به التوراة والانجيل

خـــالـــدة - اذن هو النبى الذى كنا نسمع انه يبعث فى آخر الساعة .

اليهـــودى - نعـم .

خـــالـــدة - مشيرة بيدها : أذاك هو النبى الذى نراه ؟ ! ...

اليهـــودى - نعم ، تعالى لنراه يخرجان ...

الجمهـــور - هي وراء المنظر ومن بعد يسمع هتافهم : أقبل يا رسول الله ! ... اقبل الى القوة والمتعة اقبل الى الحمى ، اقبل يا رسول اللـه ! ...

هنا يقـام مهرجان عظيم يحتفل فيه الشباب والشيوخ ، ويظهـر فيه بنات ونساء وصبيان وهم فى ابهج زينة وافخر مظهر وكلهم ينشد نشيد الهجرة :

طلــع البــدر علينـــا مـــن ثنيــة الــوداع
وجـب الشكــر علينـا مــا دعـا للـــه داع
الخ ... الخ ... الخ ...

مصـــادر :

- تاريخ الطبرى ، ط : القاهرة 1357 هـ .
- سيرة ابن هشام بشرح السهيلى ، ط القاهرة 1389 هـ .
- السيرة الحلبية ، ط : بولاق 1292 هـ .
- نهاية الارب للنويرى ، ط : دار الكتب - القاهرة 1972 م .